مَفَاتيحُ السَّعَادة

إلن ج. هوايت

MIDDLE EAST
PUBLISHERS

مُحْتَوِيَات الكِتَاب

١ - محبّة اللهِ للإنسان ٣
٢ - حَاجَتنا إلى الْمَسِيحِ ٩
٣ - التّحرّر من الشّعور بالذَّنب ١٤
٤ - رَاحَة الضَّمِير ٢٥
٥ - التّكريس التّام ٢٩
٦ - السَّلام التّام ٣٤
٧ - مُتجَدّدون في الْمَسِيحِ ٣٩
٨ - النَّمْو في الْمَسِيحِ ٤٦
٩ - العَمل والحَياة ٥٢
١٠ - التَّعرُّف بالله ٥٧
١١ - امْتِياز الصَّلاة ٦٢
١٢ - التّعامُل مَع الشَّكوك ٧٠
١٣ - الفَرَح فِي الرّب ٧٦

© ٢٠١٩ الشرق الأوسط للنشر

الاسم الأصلي للكتاب هو «طريق الحياة» بقلم: إلن ج. هوايت
اقتباسات الكِتَاب المُقَدَّس مأخوذة مِن ترجمة فانديك
تنسيق الصفحات: ماريسا فيريرا وساره كالادو

جميع الحقوق محفوظة

MIDDLE EAST
PUBLISHERS

الفصل الأول

محبّة الله للإنسان

تشهد الطبيعة شهادة الوحي بأنَّ «اللهَ مَحَبَّةٌ»، فأبونا السَّماوي هو مصدر الحياة ومنبع الحكمة والفرح. تأمل مثلاً جمال الطبيعة وعجائبها، ولاحظ ملاءمتها لجميع حاجات الإنسان والحيوان ولسعادة كلّ الكائنات الحية. فالشَّمْس والمطر اللذان ينعشان الأرض ويجددان وجهّها، والجبال والبحار، والسهول والأنهار التي تبهج الأبصار – كلها تحدثنا بمحبة صانعها الذي يرزق كلَّ حيٍّ في كل آنٍ ومكان. ولقد أنشد في ذلك المرنمُ قائلاً: «بِكَ تَتَعَلَّقُ أَعْيُنُ النَّاسِ رَاجِيَةً وَأَنْتَ تَرْزُقُهُمْ طَعَامَهُمْ فِي أَوَانِهِ. تَبْسُطُ يَدَكَ فَتُشْبِعُ رَغْبَةَ كُلِّ مَخْلُوقٍ حَيٍّ» مزمور ١٤٥: ١٥ ، ١٦.

خلق اللهُ الإنسانَ بارًا سعيدًا، وصنع له الأرض الجميلة التي كانت خالية من كل لعنة عندما خرجت من يدي اللهِ بريئةً من كلِّ فساد. أما اللعنة والموت فقد جلبهما التعدّي على ناموس اللهِ – ناموس المحبة. غير أنّ الآلام التي أثمرتها الخطية لم تحل دون إظهارِ محبة اللهِ، بل كما هو مكتوب، «مَلْعُونَةٌ الارْضُ بِسَبَبِكَ» تكوين ٣: ١٧ أي لأجلك. فما الحسك والأشواك، متاعب الحياة وصعابها، التي تجعل حياة الإنسان حياة كد وتعب، ما هي إلا لخير الإنسان ووسائط يستخدمها اللهُ لرفعه من هُوّة الخطية وإنقاذه من نتائجها الأليمة. فلئن كان العالم قد أضحى خاطئًا أثيمًا، ليس المعنى أنّ كل ما فيه محض شقاء وعناء. فالطبيعة لم تزل تحمل رسائل الرجاء والعزاء، إذ أنّ حسكها تعلوه الأزهار، وأشواكها تكسوها الورود.

إنّ آيات هذه المحبة لمسطورة على كلّ كمّ من أكمام الأزهار الفواحة العطر وعلى كلّ ورقة من أوراق الأشجار، وفي أناشيد البلابل وأغاريد العصافير التي

تملأ الجو بشدوها — هذه جميعها تشهد لعناية اللهِ بنا وتعلن رغبته الأبوية في إسعادنا جميعًا.

غير أنّ إعلان الطبيعة مع ما فيها من آيات بينات لم يكن كافيًا للإنسان لذلك أعطانا اللهُ كلمته التي تظهر صفاته، فهو تعالى أعلن عن محبته اللامتناهية وشفقته. فعندما صلَّى موسى قائلاً لله «ارِنِي مَجْدَكَ» أجاب اللهُ «أُجِيزُ كُلَّ جُودَتِي قُدَّامَكَ» خروج ٣٣: ١٨ ، ١٩. فاجتاز الرَّبُّ قدام موسى ونادى قائلاً: «الرَّبُّ الَهٌ رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الْاحْسَانِ وَالْوَفَاءِ. حَافِظُ الْاحْسَانِ الَى الُوفٍ. غَافِرُ الْاثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْخَطِيَّةِ» خروج ٣٤: ٦، ٧، ثم بقوله للنبي يونان، لأنه «بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ»، يونان ٤: ٢، وأَيْضًا للنبي ميخا «فَإِنَّهُ يُسَرُّ بِالرَّأْفَةِ» ميخا ٧: ١٨. إن هذا هو مجده تعالى.

وهكذا عمل اللهُ على اجتذاب قلوبنا إليه بآيات لا تُحصى مما في السّماء وما على الأرض. فقد جرَّب أن يعلن ذاته لنا في الطبيعة وبانتسابه إلينا بأعزّ روابط القربى وأوثقها، وإن كانت هذه تمثّل محبّته تمثيلاً غَيْر تَامّ. وعلى رغم كل تلك الدلائل التي أعطانا، استطاع الشَّيْطانُ أن يعمي البصائر والأذهان وأن يجعل الناس ينظرون إلى اللهِ نظرة تخوّف وتهيّب، ويَيْأَسُونَ من عفوه ورحمته، ويرون فيه إلهًا قاسيًا لا يرحم ولا يشفق، يحصي على الناس زلاّتهم، ويرقب عوراتهم وسيئاتهم ويتربّص بهم الدوائر لكي يوقع بهم وينتقم منهم. فلأجل إزالة هذه النظرة المظلمة، ولكي يعلن لنا محبة اللهِ الفائقة الوصف، جاء يَسُوعُ من السَّماء وحَلَّ بين الناس.

أجل، من السَّماء جاء ابنُ اللهِ ليعلن لنا الآب، لأنّ «أَلله لم يَرَهُ أَحدٌ قطّ؛ أَلإِلهُ، الابْنُ الوحيدُ، الذي هُوَ في حِضْنِ الآبِ، هُوَ نفسُهُ قد أَخبَر» يوحنا ١: ١٨. «لاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إِلاَّ الاِبْنُ وَمَنْ أَرَادَ الاِبْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ» متى ١١: ٢٧. وحين سأله أحد تلاميذه قائلاً: «يَا سَيِّدُ، أَرِنَا الآبَ وَكَفَانَا» أجاب يَسُوعُ «أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا هَذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ! اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ أَرِنَا الآبَ» يوحنا ١٤: ٨ ، ٩.

لقد وصف يَسُوعُ رسالتَه ومهمّته على هذه الأرض فقال: «رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ لأَنَّهُ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ أَرْسَلَنِي لأَشْفِيَ الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ لأُنَادِيَ لِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ وَلِلْعُمْيِ بِالْبَصَرِ وَأُرْسِلَ الْمُنْسَحِقِينَ فِي الْحُرِّيَّةِ» لوقا ٤: ١٨. هذا كان عمله، «جَالَ يَصْنَعُ خَيْرًا وَيَشْفِي جَمِيعَ

الْمُتَسَلِّطِ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ» أعمال ١٠: ٣٨. فكم من قرى عمّها البِرُّ والبُرْءُ، وكم من ضِياع نالت الشفاء والعافية لأنّ يَسُوعَ كان قد اجتاز في وسطِها، فشفى مرضاها وتحنن على صرعاها. فحيثما سار يَسُوعُ ابنُ الإنسان، سارت في ركابه المحبّةُ والرحمةُ والحنان، وكفى شاهدا على حبه وعطفه أنّه قد اتخذ طبيعتنا وصار مثلنَا في كلِّ شيءٍ ما عدا الخطية، مما شجّع الخطاة المنبوذين على الدنوّ منه والتحدّث إليه، وجعل الصغار يلتفون حوله، ويأنسون به ويتفرسون في ما يبدو على محياه مِن علامات الجدّ والاهتمام، ودلائل الحبّ والإنعام.

لقد حرص يَسُوعُ على أن يعلن الحقَّ كله، دون أنْ يكتمَ منه شيئًا، أو يخشى فيه لومة لائم، ولكنه فعل ذلك دومًا بروح المحبة. وكان في مخالطته الناسَ يوليهم أكبر جانبٍ من عنايته واهتمامه ويراعي معهم كلّ ما تقتضيه واجباتُ اللياقة واللباقة. فما عامل أحدًا بالغلظة قط، ولا تفوَّه بكلمة موجعة، ولا عمل على إيلام مخلوق بدون داعٍ أو موجب، ولا راقب زلات العباد وسقطاتهم. ومع ذلك فإنه لم يتردد قط في مكاشفة الناس بالحقيقة في صراحة وشجاعة منذرًا إياهم في ترفّق ووداعة.

فقد نعى على الناس نفاقهم، ودان عدم إيمانهم وآثامهم، ولكنّه كان دائمًا يمزج تحذيراته وتوبيخاته بدموعه وعبراته. ومن ذلك أنّه بكى على أورشليم المدينة التي أحبها، مع أنها لم تقبله، وهو الطريق والحق والحياة. ولقد عامل قومه بكلِّ رفقٍ وحنانٍ مع أنهم رفضوه، فرفضوا بذلك عونهم وخلاصهم. اتسمت حياته بنكران الذات والرعاية المضحية للآخرين. وكان، مع ما له مِن العزة الرّبانية والكرامة الإلهية، ينظر إلى كلِّ مخلوق ينتمى الى أسرة اللهِ بعين الإكبار والاعتبار، لأن كل نفس من نفوس العباد كانت حبيبة إليه عزيزة عليه. بل كان يتطلع هو إلى كل إنسان فيرى فيه نفسًا ثمينة قد وُكِل إليه من السَّمَاء أمرُ تخليصها وإنقاذها.

تلك هي صفات الْمَسِيحِ كما تجلّت في حياته، وهي بعينها صفات الآب تعالى، فإنّه من قلب اللهِ تدفقت جداول المراحم الإلهية لبني البشر بواسطة الْمَسِيحِ، فيَسُوعُ الرؤوف العطوف، إنمّا هو «اللهُ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ» ١تيموثاوس ٣: ١٦.

ولئن كان يَسُوعُ قد عاش وتألمّ ومات، وصار رجل أوجاع ومختبر الحزَن فما ذلك كله إلاّ لكي يفتدينا ويجعلنا شركاءه في الأفراح الأبدية. وهكذا سمح اللهُ تعالى بأن ينزل ابنه الحبيب، مملوءًا نعمة وحقًا، من

عالم المجد الفائق إلى عالم ملوّث بالإثم، وموبوء بالخطية، إلى أرض قد غطّاها سواد الموت، وغشتها أشواك اللعنة. بل هكذا سمح اللهُ لابنه الوحيد بأن يترك أحضان المحبة الأبوية، وما يحفّ به من العبادات الملائكية، لكي يأتي إلى بني البشر حيث هم، محتملاً منهم العار والهوان، والكراهية والنكران. وفي النهاية مات ميتة المذنبين المجرمين، لأن «تَأْدِيب سَلاَمِنَا عَلَيْهِ، وَبِحُبُرِهِ شُفِينَا» إشعياء ٥٣: ٥.

تطلع إليه وهو في جثسيماني، وهو على الصَّلِيب. فهذا ابنُ اللهِ القُدُّوس، الذي لم يعمل ظلمًا. ولم يكن في فمه غش، قد ناءت كاهلاه تحت أعباء اللعنة وأثقال الخطية. ثم انظر إليه ثانية، فترى ابن اللهِ الذي كان في اتحاد تام مع الآب وقد أصبح يشعر بتلك العزلة الرهيبة، والهوّة السحيقة التي تفصل الإنسان الخاطيء عن اللهِ، مما جعله يصرخ صرخة متألم متوجّع قائلاً: «إِلَهِي إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي» متى ٢٧: ٤٦. إنَّ شعوره بفداحة عبء الخطية، وإدراكه لهول جرمها، وإحساسه بانفصام عرى الشركة بين النَّفْس واللَّه كانت هي الأمور التي عملت على سحق قلب ابن اللَّهِ الحبيب.

على أنّ هذه التضحيةَ العظمى لم يأتها الابنُ ليخلق في قلبِ الآبِ محبّة للإنسان، ولم يقصد بها أن يجعل عند الآبِ الرغبةَ في العمل على خلاص الإنسان. كلاّ، «لأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الوحيد» يوحنا ٣: ١٦. فالكفارة. إذن، لم تكن هي علّة المحبّة التي أحبنا بها الآب، وإنما الآب أحبنا فأعدَّ لنا الكفارة، وكان الْمَسِيحُ هو الواسطة التي بها سكبَ اللَّهُ محّبتَه على عالم قد ضلّ وهوى، إذ «إِنَّ اللَّه كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحًا الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ»، ٢كورنثوس ٥: ١٩. ففي الآلام التي جاز فيها في بستان جثسيماني، وعلى صليب العار في جلجثة، تألم الآب مع ابنه، ودفعت المحبة ثمن فدائنا غاليًا.

وليس أدلّ على محبة الآب لنا مما نطق به يَسُوعُ نفسه في قوله: «لِهَذَا يُحِبُّنِي الآبُ لأَنِّي أَضَعُ نَفْسِي لِآخُذَهَا أَيْضًا» يوحنا ١٠: ١٧. فكأني به يقول: لقد أحبكم أبي للدرجة التي زادت محبته لي وتقديره إياي لكوني قد بذلت حياتي لأفتديكم طائعًا مختارًا. ورضيت بأن أكون بديلكم وكفيلكم بتسليم حياتي، حاملاً ذنوبكم وموفيًا ديونكم. لأنه بفضل ذبيحتي الفدائية، وأعمالي الكفارية، أمكن اللهُ تعالى أن «يَكُونَ بَارًّا وَيُبَرِّرَ مَنْ هُوَ مِنَ الإِيمَانِ بِيَسُوعَ» رومية ٣: ٢٦.

لـم يسـتطع أن يفدينـا غـير ابـن اللهِ، إذ لـم يقـدر أن يعلـن اللهَ غـير الـذي كان في حضنـه، الـذي وحـده اسـتطاع أن يظهـر محبتـه لأنـه عـاش عمقهـا وبلـغ ذراهـا. لا شيء أقـل مـن، الذبيحـة اللامتناهيـة الـتي قـام بها الْمَسِيحُ لأجلنـا، يمكـن أن تُعبِّر عـن محبـة الآب للبشريـة الهالكـة.

«لأَنَّهُ هكَـذَا أَحَـبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَـتَّى بَذَلَ ابْنَـهُ الْوَحِيـدَ» يوحنـا ٣: ١٦. وقـد بذلـه، لا لـكي يعيـش بـين البـشر، ويحمـل خطاياهـم، ويمـوت ذبيحـة عنهـم، فحسـب، بـل وهبـه للجنـس البـشري هبـةً، فصـارت شـؤونهم شـؤونه، وحاجاتهـم حاجاتـه. فالـذي هـو واحـد مـع الآب ارتبـط بالبشريـة ارتباطًـا وثيقًـا جـدًّا، فهـو «لاَ يَسْـتَحِي أَنْ يَدْعُوَهُـمْ إِخْـوَةً» عبرانيـين ٢: ١١. لأنّـه هـو ذبيحتُنـا، بل شـفيعُنا بـل أخونـا، يحمـل صورتَنـا كابـن الإنسـان وهو عـلى عـرش الآب. فهـو إلى الأبـد واحـد مـع الجنـس الـذي فـداه بدمـه. وقـد صـار ذلـك كلَّـه لأجـل رفـع الإنسـان مـن هُـوّة الخطيـة وخرابهـا إلى الاشـتراك في فـرح القداسـة وإلى إعـلان محبـة اللهِ للعالمـين.

إنّ ثمـن فدائنـا الـذي دُفِـع، أي تضحيـة أبينـا السَّـمَاوي اللامحـدودة في بـذل ابنـه ليمـوت لأجلنـا، يجـب أن يمنحنـا إدراكا أسـمى لمـا قـد نصبـح عليـه في الْمَسِـيحِ. فالرسـول الملهـم، يوحنـا الحبيـب، إذ أدرك شـيئًا مـن علـو محبـة اللهِ وعمقهـا وعرضهـا، امتـلأ بالهيبـة والوقـار وعجـز عـن إيجـاد كلمـات بهـا يعـبِّر عـن عظمـة هـذه المحبـة لجنـس هالـك. فدعـا الجميـع للتأمـل فيهـا قائـلاً: «أُنْظُـرُوا أَيَّـةَ مَحَبَّـةٍ أَعْطَانَـا الآبُ حَـتَّى نُدْعَـى أَوْلاَدَ اللهِ» ١يوحنـا ٣: ١. فمـا أعظـم مقـام الإنسـان نتيجـة لهـذا الفـداء. فبنـو الإنسـان الذيـن قـد صـاروا بالمعصيـة رعايـا إبليـس، يصيـرون بالإيمـان بذبيحـة الْمَسِـيحِ الكفاريـة أبنـاء اللهِ، بتجسّـده رفـع يَسُـوعُ شـأن البشرية وجعـل الخطـاة الهالكـين في مركـز يسـتحقون فيـه اللّقـب السَّـامي العظيـم «أولاد اللهِ».

إنَّ هـذه المحبـة منقطعـة النظـير، أن نكـون أولادًا لملـك السَّـمَاء. إنـه لوعـد ثمـين وعهـد كريـم، وموضـوع يسـتحق التأمـل العميـق — موضـوع محبّـة اللهِ القديـر لعالـم لـم يحبـه. إنّ لهـذه الفكـرة، إذا اسـتغرق المـرء فيهـا، قـوة عـلى إخضـاع النَّفْـس، وقـدرة عـلى استئسـار الذهـن لإرادة اللهِ، لأنّ التأمـل في صفـات اللهِ، في ضـوء الصَّلِيـب، ليعلـن لنـا الرحمـة والشـفقة والمغفـرة، متحـدة بالعدالـة والـبرِّ والقداسـة، وليجلـو لنـا آثـار حـبّ لا حـدّ لـه، يفـوق محبّـة الأم وحنانهـا عـلى ولدهـا التائـه الشريـد.

الفصل الثاني

حَاجتُنا إلى الْمَسِيحِ

لقد خَصَّ اللهُ الإنسانَ، حين خلقه، بقوى سامية وعقلية متزنة، فكانت حياته حياة الكمال والتوافق مع اللهِ. وكانت أفكاره طاهرة، وأغراضه مُقدَّسة. ولكنه ما لبث أن عصى ربَّه وخالف أمره. فحلت فيه الأنانية بدلاً من حُبّ الغَيْر والتضحية من أجلهم، وبات ضعيفًا عاجزًا لا يقوى على مقاومة سلطان الخطية وتأثيرها بجهوده الذاتية وقوته الشّخصية. لقد أسره الشَّيْطانُ، ولولا أنّ اللهَ تعالى لطف بالإنسان وتدخّل في أمره، لأبقاه الشَّيْطانُ أبد الدهر في قبضته وأسره، كان قصْد المجرّب أن يعطل تدبيرات اللهِ، ويحول دون تحقيق مقاصده السامية بشأن الإنسان فيملأ الأرض مرارة وحزنًا، ويجعلها قفرًا وخرابًا. حتى إذا تمّ له ما أراد، نسب كل هذا البلاء المرير والشرّ المستطير إلى اللهِ تعالى، لأنه خلق الإنسان وخصَّه بمثل هذا الكيان والوجدان.

فالإنسان في براءته كان يتصل اتصالاً بهجًا «بالْمُذَّخَرِ فِيهِ جَمِيعُ كُنُوزِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ» كولوسي ٢: ٣. أما وقد أخطأ فلم يعُدْ يرى في الطهارة لذةً وسرورًا أو في محادثة ربّه فرحًا وحبورًا، بل حاول أن يتوارى ويختبيء من حضرة اللهِ. وهذه حالة كلّ إنسان لم يتجدد بعد إذ إنه لا يكون في حالة وئام مع اللهِ، ولا يشعر بفرح في الاتصال به والتحدّث إليه. فالخاطئ لا يمكنه أن يكون سعيدًا وهو في حضرة اللهِ كما أنه ينفر من معاشرة ساكني السَّمَاء. فلو أُتيح له أن يدخل السَّمَاء، لما بعث ذلك فرحًا في نفسه، لأن نفسه لا تسرّ بروح محبة الغير التي تسود سكان السَّمَاء، وقلبه لا يتجاوب مع قلب المحبة العظمى. فضلاً عن أنّ اهتمامه، وأفكاره، ودوافعه، تبدو غريبة ومناقضة لبواعث

أولئـك الأبـرار الأطهـار. فهـو إذن يكـون كنغمـةٍ نـاشزةٍ في لحـن السَّـمَاء، بـل تكـون السَّـمَاء لـه مـكان ألـمٍ وتعذيـب حـتى ليـودَّ أن يختبئ مـن ذاك الـذي هـو مصـدر نورهـا ومبعـث بهجتهـا وحبورهـا. فليـس حرمـان الأشرار مـن دخـول السَّـمَاء أمـرًا مقضيًـا بـه مـن اللهِ، بـل عـدم صلاحيتهـم لهـا هـو الـذي يحـول دون دخولهـم إليهـا، إذ إنّ مجـد اللهِ يكـون لهـم نَـارًا آكلـة، حـتى أنهـم ليلتمسـون الهـلاك التماسًـا تواريًـا مـن وجـه ذاك الـذي مـات لـكي يفتديهـم.

إنـه ليسـتحيل علينـا أن ننقـذ أنفسـنا مـن هـوة الخطيـة الـتي تردّينـا فيهـا. فقلوبنـا شـريرة وليـس في اسـتطاعتنا أن نغـيّر مـا بهـا، كمـا يصـف ذلـك أيـوب في قولـه: «مَـنْ يُخْـرِجُ الطَّاهِـرَ مِـنَ النَّجِـسِ؟ لاَ أَحَـدٌ». أيـوب ١٤: ٤. وكقـول الرسـول بولـس: «لأَنَّ اهْتِمَـامَ الْجَسَـدِ هُـوَ عَـدَاوَةٌ لِلَّـهِ إِذْ لَيْـسَ هُـوَ خَاضِعًـا لِنَامُـوسِ اللهِ لأَنَّـهُ أَيْضًـا لاَ يَسْـتَطِيع» رومية ٧: ٨. أمـا وسـائل التربيـة والتعليـم، والتهذيـب والتثقيـف، وتدريـب الإرادة، ومـا إلى ذلـك مـن الجهـود البشريـة الـتي تُبـذل في سـبيل ترقيـة الإنسـان، فهـذه كلّهـا لهـا قيمتهـا ومكانتهـا في نـواح أخـرى مـن الحيـاة، لكنّهـا في هـذا الموضـوع بالـذات عديمـة الجـدوى. فهـي قـد تكـون ذات تأثـير في تحسـين سـلوك الإنسـان وصقلـه مـن الخـارج، ولكنّهـا لـن تقـوى عـلى تغيـير قلبـه وتطهـير بواعثـه وأفـكاره. لأن الانتقـال مـن حيـاة الخطيـة والرذيلـة، إلى حيـاة القداسـة والفضيلـة، يسـتلزمُ حتمـا قـوّةً تعمـل عـلى تغيـير الإنسـان مـن الداخـل. ويقتـضي حيـاةً جديـدةً يؤتاهـا الإنسـانُ مـن فـوق. وهـذه القـوة هـي الْمَسِـيحُ، فـإنّ نعمتَـه وحدهـا هـي الـتي تُحـيي النَّفْـسَ المائتـة، وتجتذبهـا نحـو اللهِ، وتسـتميلها إلى حيـاة القداسـة والكمـال.

وقـد قـال المخلِّص: «إِنْ كَانَ أَحَـدٌ لاَ يُولَـدُ مِـنْ فَـوْقُ»، أي أنّـه مـا لـم يحصـل الإنسـانُ الخاطئ على تجـديدٍ في قلبه وأفكاره، ورغـائبه وبواعثـه صـوب حياة جديـدة، فانه «لاَ يَقْـدِرُ أَنْ يَـرَى مَلَكُـوتَ اللَّـهِ» يوحنا ٣: ٣. فالفكـرة في أنّ الحاجـةَ الوحيـدة إنما هـي إلى تنميـة التقـوى الفطريـة والصلاحّ الطبيعـي الكامنـين في نفوسِنا، إنْ هـي إلاّ خدعـة مميتة، لأن «الإِنْسَـانَ الطَّبِيعِـيَّ لاَ يَقْبَـلُ مَـا لِـرُوحِ اللهِ لأَنَّـهُ عِنْـدَهُ جَهَالَـةٌ وَلاَ يَقْـدِرُ أَنْ يَعْرِفَـهُ لأَنَّـهُ إِنَّمَـا يُحْكَـمُ فِيـهِ رُوحِيًّـا» ١كورنثـوس ٢: ١٤. «لاَ تَتَعَجَّـبْ أَنِّي قُلْـتُ لَـكَ: يَنْبَغِـي أَنْ تُولَـدُوا مِـنْ فَـوْقُ» يوحنا ٣: ٧. هـذا مـن جهـة، ومن جهة أخـرى، فـإن الْمَسِـيحَ وحده هـو المكتوب عنه «فِيـهِ كَانَـتِ الْحَيَـاةُ وَالْحَيَـاةُ كَانَـتْ نُـورَ النَّاسِ»

يوحنا ١: ٤. وأَيْضًا «لَيْسَ بِأَحَدٍ غَيْرِهِ الْخَلاَصُ. لأَنْ لَيْسَ اسْمٌ آخَرُ تَحْتَ السَّمَاءِ قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسِ بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ» أعمال ٤: ١٢.

فلا يكفي أن نشعر برحمة اللهِ، وندرك ما تنطوي عليه صفاته من الجود والحنو الأبوي. ولا يكفي أن ندرك حكمة الناموس وعدالته، وندرك أنّه قائم على مبدأ المحبة الأبدي. فبولس الرسول، كان مدركًا لهذه كلّها حين قال: «فَإِنِّي أُصَادِقُ النَّامُوسَ أَنَّهُ حَسَنٌ» رومية ٧: ١٦، وأنه «مُقَدَّسٌ وَالْوَصِيَّةُ مُقَدَّسَةٌ وَعَادِلَةٌ وَصَالِحَةٌ» رومية ٧: ١٢. ولكنّه مضى يقول أَيْضًا وهو في مرارة الألم واليأس «أما أنا فجسدي مبيع تحت الخطية» رومية ٧: ١٤. كان بولس الرسول يتوق إلى البرّ والطهارة. ولكنه كان عاجزًا في نفسه عن بلوغهما، مما جعله يصرخ قائلاً: «وَيْحِي أَنَا الإِنْسَانُ الشَّقِيُّ. مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هَذَا الْمَوْتِ» رومية ٧: ٢٤. ولقد ردد مثل هذه الصرخة، في كلّ الأزمنة والعصور كثيرون من ذوي القلوب المثقلة بالخطية، ولم يكن لهم من جوابٍ سوى ما جاء عنه: «هُوَذَا حَمَلُ اللَّهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ» يوحنا ١: ٢٩.

كثيرة هي الصّور والرموز التي بها التمس روح اللهِ تمثيل هذه الحقيقة لتكون واضحة جلية لكلِّ من يتوق إلى التحرر من عبءِ الخطية. ومن تلك الصور ما أعلنه اللهُ ليعقوبَ حين هرب من بيت أبيه على إثر مخادعته لأخيه عيسو. فقد كان يعقوب يعاني من الشعور بالذنب والإثم، حتى أنّ تخوُّفَهُ من خطيته طغى على كل ما كان يشعر به من الفراق والبعاد، والحرمان والانفراد. وكان جلّ ما يخشاه أن تؤدي خطيتُه إلى فصله عن اللهِ، وإقصائِه عن السّماء. وبينما هو على هذه الحالة من الحزن والكآبة استلقى، مفترشًا الغبراء، وملتحفًا بالعراء، ولم يكن حوله سوى تلال موحشةٍ جرداء. ولما نام طرق عينيه نور غريب، فإذا منظر سلمٌ متسع، بدا له من السَّهل الذي كان مضطجعًا فيه، وكان السلم متجهًا إلى فوق، ومؤديًا إلى باب

السّماء، وعلى درجاته يصعد ملائكة اللهِ وينزلون. ومن المجد الأسنى، سمع الصوت الإلهي يردد رسالة العزاء والرجاء، ويعلن ليعقوبَ ما كان يصبو إليه قلبُه، أي أنه تعالى يكون له حافظًا ومُخلِّصًا. ففي غمرة الفرح والشُّكْر تجلَّى له الطريق الذي به يستطيع، كخاطيء، أن يستردَّ اتصاله باللهِ، إذ إنَّ السّلم الذي ظهر له في الحلم، إنّما يُمثِّل الْمَسِيحَ، الوسيط الوحيد، بين اللهِ والإنسان.

وإلى هذا الرمز عينه أشار الْمَسِيحُ في حديثه مع نثنائيل إذ قال: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تَرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً وَمَلاَئِكَةَ اللَّهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ» يوحنا ١: ٥١. فإنَّ الإنسان إذ عصى اللهَ وارتد عنه، فقد أقصى نفسه عن حضرة اللهِ، فانفصلت بذلك الأرض عن السَّمَاء، وصارت بينهما هوة لم يستطع أحد عبورَها. ولكن بواسطة الْمَسِيحِ، وبفضل استحقاقاتِه، أزيلت الهوة التي أحدثتها الخطية، وأعيدت حلقة الاتصال بين الأرض والسّماء. فتسنّى للملائكة بذلك أن يتخاطبوا مع البشر ويكونوا في خدمتهم. فبالْمَسِيحِ إذًا وبه وحده يمكن للإنسانِ الضعيفِ العاجزِ ان يجدد اتصالَه بمصدرِ القوة التي لا تُحدّ.

من العبث أن يحلم الناس بإحراز شيء من التقدّم والنجاح، ومن الباطل أن يسعوا لرفع شأن الإنسانية، ما داموا مصُرّين على تجاهل ذلك المصدر الأعلى، الذي يجب أن تستمد منه البشرية الصريعة كلّ معونةٍ ورجاء. لأن «كُلّ عَطِيَّةٍ صَالِحَةٍ وَكُلُّ مَوْهِبَةٍ تَامَّةٍ هِيَ مِنْ فَوْقُ، نَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِ أَبِي الأَنْوَارِ، الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ تَغْيِيرٌ وَلاَ ظِلُّ دَوَرَانٍ» يعقوب ١: ١٧، ومن العبث أَيْضًا أن يحاول الإنسان التحلّي بمكارم الأخلاق وهو بعيد عن الْمَسِيحِ، لأنّه ليس من سبيل للوصول إلى اللهِ إلا بواسطةِ ذاك الذي قال عن نفسه: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي» يوحنا ١٤: ٦.

فقلب اللهِ تعالى توّاق إلى أولاده على الأرض لأنه يكنّ لهم حبًا أقوى من الموت. وكفانا آية على هذا الحب العجيب، أنّ اللهَ قد جمع كلَّ بَرَكَاتِ السَّمَاء ومزاياها في عطية واحدة ألا وهي عطيةُ الابن الوحيد، تلك العطية التي لا يُعبّر عنها. فما حياته وموته وشفاعته، وما خدمة الملائكة، وشفاعة الروح، وما الآب العامل فوق الكل وفي الكل، وما المخلوقات الروحية وهي في شغلٍ شاغل، ما هذه إلاّ قِوى معبأة، ووسائل مهيَّأة لخلاص الإنسان خلاصًا أبديًا.

فلنتأمل في التضحية المدهشة التي

بُذلت في سبيل خلاصِنا. ولنقدّر كلّ ما جادت به السَّمَاءُ، من جهد وعناء، في سبيلِ إنقاذ الهالكين واسترجاع الضالين إلى حظيرة الآب السَّمَاوي. فإنّه ما مِن شيء يَخلقُ فينا بواعثَ قويةً، وحوافزَ شديدةً، مثل التأمل في تضحية الْمَسِيحِ. فهلاّ يحفزنا لخِدمةِ سيدِنا ومخلّصِنا ما أعدّه من أجرٍ وثوابٍ لمَن يفعلون الصلاح، وهلاّ تستهوينا تلك الأفراح السَّمَاوية وعِشرة الملائكة وشركة ومحبة الآب والابن؟ أَمْ نطلب حياة الرفعة والتسامي، ونرغب في ازدياد قوانا ومواهبنا، واتساع معارفنا ومداركنا مدى أجيال الأبدية؟ أو ليست هذه كلّها مما يستحثنا على أن نقدّم لخالقِنا وفادينا خدمة المحبة القلبية؟

ومن جهة أخرى فإنّ دينونة اللهِ على الخطية وقصاصها المحتوم، وانحطاطنا الخُلُقي، والهلاك الأبدي، كلها مقدمة لنا في كلمة اللهِ لتحذرنا من خدمة الشَّيْطانِ.

أفلا نقدّر رحمة اللهِ؟ وأي شيء كان ممكنا أن يعمله أكثر مما فعل؟ فلنسع إذن إلى تصحيح موقفنا بالنسبة للذي أحبنا حبًّا فائقًا عجيبًا، ولننتفع بالوسائط المقدمة لنا، حتى نتغيّر إلى شبهه، ونعاد إلى عِشرة الملائكة الخادمين ونصير في وئام وشركةٍ مع الآب والابن والرُّوح الْقُدُس.

الفصل الثالث

التحرّر مِن الشّعور بالذنب

كيف يتبرر الإنسانُ عند اللهِ؟ وكيف يتزكّى المذنب؟ إنما بالْمَسِيحِ وحده نصير في وفاقٍ مع اللهِ، واتّساق مع القداسة. ولكن كيف يتسنّى لنا أن نأتي إلى الْمَسِيحِ؟ كثيرون يسألون هذا السؤال الذي سأله الجمهور في يوم الخمسين إذ «نُخسوا في قلوبهم»، فصرخوا قائلين: «ماذا نصنع؟» أعمال ٢: ٣٧. وأول كلمة أجاب بها الرسول بطرس كانت قوله «توبوا» أعمال ٢: ٣٨. وما لبث بعد ذلك أن قال في موضع آخر: «تُوبُوا وَارْجِعُوا لِتُمْحَى خَطَايَاكُمْ» أعمال ٣: ١٩.

أما التوبة فهي الحزن على الخطية والإقلاع عنها. ولا يقلع عنها المرءُ ما لم يتبيّن شرَّها. ولا يصير تغيير في الحياة ما لم يرجع عنها رجوعًا باتًّا.

غيرَ أنّ الكثيرين يخطئون فهم كُنْه التوبة. فمنهم من يحزن لأنه أخطأ، بل ويحاول إصلاح سيرته إصلاحًا خارجيًا، لأنّه إنما يخشى أنّ خطيته قد تجلب عليه خسارة وألمًا. ولكنّه بذلك لم يتب توبة بمعنى الكلمة، لأنه إنما يندب الآلام لا الخطية. فشأنه شأن عيسو الذي بعد أن باع البكورية بكى على ضياع بَرَكَاتِها إلى الأبد. وحاله حال بلعام الذي أقر بذنبه، خوفا على حياته حين رأى الملاك يعترض طريقه والسيف السليل بيده. ولكنّه لم يتب عن الخطية ولم يبغض شرّها، لأنّه لم يغير قصده واتجاهه. وهكذا يهوذا الاسخريوطي، فبعد أن أسلم سيدّه اعترف قائلاً: «أَخْطَأْتُ إِذْ سَلَّمْتُ دَمًا بَرِيئًا» متى ٢٧: ٤. فالذي أجبره على الاعتراف هو شعوره بالإدانة وانتظاره القصاص، لأن العواقب التي لا بدّ من أن تأتي بها الخطية ملأت نفسه رعبًا وقشعريرةً. وأما الحزن العميق على إنكاره ابن اللهِ البار، والأسف

الشـديد عـلى خيانتـه قـدوس إسرائيـل، فكانـت نفسـه بريئـة منهمـا. وفـرعون كان كلّمـا حـلّت بـه ضربـة مـن الضربـات يـصرخ معترفـا بخطئـه لـكي يُجنّـب نفسـه المزيـد مـن العقـاب حـتّى إذا مـا اسـتجاب اللهُ لصراخـه ودعائـه عـاد إلى عنـاده وكبريائـه، فهـؤلاء جميعهـم لـم يحزنـوا عـلى الخطيـة ذاتهـا بـل خوفـا مـن عواقبهـا المؤلمـة.

ولكـن عندمـا يستسـلم الإنسـان لتأثـير الـرُّوح الْقُـدُس يحيـا الضمـير، فيأخـذ الخاطـئ يـدرك شـيئًا مـن عمـق النامـوس وقدسـية الشريعـة الـتي هـي قاعـدة حكـم اللهِ في السَّمَاء وعـلى الأرض. ويـشرق في نفسـه «النُّـورُ الْحَقِيقِـيُّ الَّـذِي يُنِـيرُ كُلَّ إِنْسَـانٍ» يوحنـا ١: ٩ خارقًـا إلى الأعمـاق وكاشـفًا خفايـا القلـب، فيمتلـك فكـر الخاطـئ الشـعور بالتبكيـت والإدانـة. ثـم يـرى بـرَّ اللهِ فيعتريـه الرعـبُ مـن الظهـور بذنبـه ونجاسـةِ قلبـه أمـام فاحـص القلـوب ومختـبر الـكلى. ثـم يـرى أَيْضًـا محبـة اللهِ، وجمـال القداسـة، وبهجـة الطهـارة، فيتـوق إلى التطهـير وإلى اسـتعادة صلتـه بالسَّـمَاء.

إنَّ الصَّـلاة الـتي صَلَّاهـا داود إثـر سـقطتِه لتصـوّر لنـا الحـزن الحقيقـي عـلى الخطيـة. فقـد كانـت توبتـه خالصـة وعميقـة، إذ لـم تبـد منـه أيـة محاولـة لتلطيـف جُرمـه أو لاسـتصغار ذنبـه. ولـم تكـن الرغبـة في النجـاة مـن الدينونـة الـتي تتوعـده هـي الـتي أوحـت إليـه بالصَّـلاة الـتي رفعهـا. ولكـن داود كان قـد أدرك فداحـة تعدّيـه، وتبـين لـه مـا في نفسـه مـن دنـس ونجاسـة، فأبغـض الخطيـة وكرههـا، حـتى أنـه، حـين صلـى، لـم يلتمـس فقـط الحصـول عـلى الغفـران بـل طلـب أَيْضًـا طهـارة القلـب. فقـد كان مشـتاقًا إلى بهجـة القداسـة، توَّاقًـا إلى اسـتعادة صلتـه بـاللهِ، كمـا عـبّر عـن ذلـك بقولـه: «طُـوبَى لِلَّـذِي غُفِـرَ إِثْمُـهُ وَسُـتِرَتْ خَطِيَّتُهُ. طُـوبَى لِرَجُـلٍ لاَ يَحْسِـبُ لَـهُ الـرَّبُّ خَطِيَّـةً، وَلاَ فِي رُوحِـهِ غِـشٌّ» مزمـور ٣٢: ١ و ٢.

«ارْحَمْـنِي يَـا اَللهُ حَسَـبَ رَحْمَتِـكَ. حَسَـبَ كَـثْرَةِ رَأْفَتِـكَ امْـحُ مَعَاصِيَّ. اغْسِـلْنِي كَثِـيرًا مِـنْ إِثْمِـي، وَمِـنْ خَطِيَّـتِي طَهِّـرْنِي. لأَنِّي عَـارِفٌ بِمَعَـاصِيَّ، وَخَطِيَّـتِي أَمَامِـي دَائِمًـا. ... طَهِّـرْنِي بِالزُّوفَـا فَأَطْهُـرَ. اغْسِـلْنِي فَأَبْيَـضَّ أَكْـثَرَ مِـنَ ... قَلْبًـا نَقِيًّـا اخْلُـقْ فِيَّ يَـا اَللهُ، وَرُوحًـا مُسْـتَقِيمًا جَـدِّدْ فِي دَاخِـلِي. لاَ تَطْرَحْـنِي مِـنْ قُـدَّامِ وَجْهِـكَ، وَرُوحَـكَ الْقُـدُّوسَ لاَ تَنْزِعْـهُ مِـنِّي. رُدَّ لِي بَهْجَـةَ خَلاَصِـكَ، وَبِـرُوحٍ مُنْتَدِبَـةٍ اعْضُـدْنِي» مزمـور ٥١: ١-٣ و ٧ و ١٠ - ١٢.

«نجِّـنِي مِـنَ الدِّمَـاءِ يَـا اَللهُ، إِلـهَ خَـلاَصِي، فَيُسَـبِّحَ لِسَـانِي» مزمـور ٥١: ١٤.

فمثـل هـذه التوبـة ليسـت في مقدورنـا.

إنها فوق طاقتنا، وإنما نؤتاها من الْمَسِيحِ الذي إذ «صَعِدَ إِلَى الْعَلاَءِ سَبَى سَبْيًا وَأَعْطَى النَّاسَ عَطَايَا» أفسس ٤: ٨.

يخطيء كثيرون فهم هذه الحقيقة فيفشلون في الحصول على المعونة التي يريدها لهم الْمَسِيحُ، إذ يظنّون أنه ليس في إمكانهم أن يأتوا إليه إلا إذا تابوا أولاً، وأنّ التوبة هي التي تعدّ لهم السبيل للحصول على الغفران. نعم، إنّ التوبة تسبق الغفران، لأنّه لا يشعر بحاجته إلى مُخلّص إلا كلّ ذي قلب منكسر وروح منسحقة. ولكن هل معنى ذلك أنّه يجب على الخاطئ ألا يأتي إلى الْمَسِيحِ حتى يتوب أولاً؟ وهل نجعل من التوبة عقبة تحول دون وصول الخاطئ إلى مُخلّصه؟

إنّ الكِتَاب المُقَدَّس لا يُعلِّم أنّ الخاطئ يجب أن يتوب قبل أن يستجيب لتلك الدعوة التي يناشدنا بها الْمَسِيحُ قائلاً: «تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ وَأَنَا أُرِيحُكُمْ» متى ١١: ٢٨. إنّ القوة التي تقودنا إلى التوبة الحقيقية إنما هي قوة من الْمَسِيحِ، كما أوضح ذلك الرسول بطرس للإسرائيليين في قوله: «هذَا رَفَّعَهُ اللهُ بِيَمِينِهِ رَئِيسًا وَمُخَلِّصًا، لِيُعْطِيَ إِسْرَائِيلَ التَّوْبَةَ وَغُفْرَانَ الْخَطَايَا» أعمال ٥: ٣١. فكما أننا بدون الرُّوح الْقُدُس، الذي يُحيي الضمير، لا نستطيع التوبة، كذلك أَيْضًا لا يُمكننا الحصول على الغفران بدون الْمَسِيحِ.

إنّ الْمَسِيحَ هو مصدر كل باعث حقٍ، وهو وحده القادر أن يغرس في قلوبنا عداوة للخطية، فكلّ رغبةٍ تتولّد فينا نحو الحق والطهارة، وكلّ اقتناع بشعورنا بالذنب، إنما هو دليل على أنّ روحه يعمل فينا.

لقد قال الْمَسِيحُ: «وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ» يوحنا ١٢: ٣٢. فيجب أن يُعلَن الْمَسِيحُ للخاطئ مُخَلِّصًا يموت عن خطية العالم لأننا، إذ نراه، حمل اللهِ، مرفوعًا على صليب جلجثة، نأخذ ندرك شيئًا من سرّ الفداء، فيقتادنا لطف اللهِ إلى التوبة. فالْمَسِيحُ بموته عن الخطاة أماط اللثام عن حبّ يفوق الوصف والإدراك، وكلما تأمّل الخاطئ في هذا الحب لانَ قلبُه، وذابت روحُه وانسحقت نفسه فيه.

ويحدث أنّ الناس يستهجنون شرّ أعمالهم، فيقلعون عن بعض عاداتهم السيئة قبل أن يدركوا أنهم إنما ينجذبون إلى الْمَسِيحِ. ، ولكن الحقيقة هي أنّ كل مجهود إصلاحي يقومون به عن رغبة خالصة لعمل ما هو حق وصواب إنّما هو قوة الْمَسِيحِ التي تجتذبهم إليه، إذ يستحثّ قلوبهم، من حيث لا يشعرون، فتحيا ضمائرهم، وتتغير حياتهم. وإذ

يستميلهم الْمَسِيحُ ليلتفتوا إلى الصَّلِيب ويروه معلّقًا هناك مطعونًا بخطاياهم، تتمكن الوصية من ضمائرهم، فيتجلّى لهم شرّ حياتهم، وتنكشف لهم الخطية المتأصلة في قلوبهم. وإذ يدركون شيئًا من بِرّ الْمَسِيحِ وكماله يصيحون قائلين: «ما هي الخطية حتى يستلزم فداء فرائسها كل هذه التضحية؟ وهل يتطلّب الأمر كلّ هذه المحبّة وكل هذا الاتضاع وكل هذه الآلام لكي لا نهلك بالخطية بل تكون لنا الحياة الأبدية؟»

وقد يقاوم الخاطئ هذه المحبة، وقد يرفض أن ينقاد إلى يَسُوعَ. ولكنّه إذا لم يقاوم فإنه لا بدّ من أن ينجذب إليه، إذ أنّ معرفة تدبير الخلاص تقوده إلى الصَّلِيب فيأتي إليه نادمًا على خطاياه التي سببت كلّ هذه الآلام لابن اللهِ الحبيب.

إنّ القوة الإلهية التي تعمل في إحياء الطبيعة هي عينها التي تتحدث إلى قلوب الناس وتخلق فيهم شوقًا وهيامًا إلى ما يفتقرون إليه وما لا يستطيع العالم أن يمدّهم به. وروح اللهِ هو الذي يتوسّل إليهم أن يلتمسوا فقط الأشياء التي تنيلهم السلام والراحة، أي نعمة الْمَسِيحِ وبهجة القداسة. فبتأثيرات مرئية، وغير مرئية يسعى مخلصنا دائمًا إلى استمالةِ عقولِ الناسِ من ملذّات الخطية التي لا تُشبع النَّفْسَ إلى البَرَكَات الثمينة التّي ينالونها فيه. فإلى كل مَن يلتمس عبثًا أن يرتوي من آبار العالم المشققة، يوجّه اللهُ دعوتَه قائلاً: «وَمَنْ يَعْطَشْ فَلْيَأْتِ. وَمَنْ يُرِدْ فَلْيَأْخُذْ مَاءَ حَيَاةٍ مَجَّانًا» رؤيا ٢٢: ١٧.

فأنتم يا من تتوق قلوبكم إلى ما هو أفضل وأسمى مما يعطيكم إياه العالم، اعلموا أنّ شوقكم هذا هو صوت اللهِ لضمائركم. واطلبوا إليه أن يمنحكم التوبة، ويعلن لكم الْمَسِيحَ في محبته الفائقة الوصف، وطهارته الكاملة. ففي حياته قد تمثّلت المبادئ التي تتلخص فيها الشريعة الإلهية، أعني المحبة لله والمحبة للإنسان. فالمحبة والرحمة كانتا جوهر حياة يَسُوعَ، حتى إننا إذ نراه ويُشرق نوره علينا نتيقن من نجاسة قلوبنا.

قد يكون أنّنا تملّقنا أنفسنا، كما فعل نيقوديموس، فنظن أنّ حياتَنا مستقيمة، وأنّ أخلاقنا قويمة فلا نحتاج إلى أن نتذلل أمام اللهِ تذلل أحد عامة الخطاة. ولكن متى أشرق في قلوبنا نور الْمَسِيحِ ظهر لنا مدى نجاستنا وأثرتنا وعداوتنا لله. وعندئذ نعرف أنّ كلّ أعمالِنا ملوّثة بل أنّ أعمال برّنا كثوبِ عدّة، وأنّ دم الْمَسِيحِ وحده كفيل بتطهيرنا من نجاسة الخطية وبتجديد

قلوبنا لكي نكون مشابهين لصورته.

فإنّ النَّفْسَ إذ يتخللها شعاع يسير من مجد اللهِ، وقبس ضئيل من طهارة الْمَسِيحِ، يتضح لها في ألم ما بها من حَمَاقَة ودنس، وتنكشف لها نقائص الصفات البشرية واعوجاجها، وتتبين ما هي عليه من فساد في الميول وجحود في القلب ونجاسة الشفاه. وهكذا يعرض أمام عيني الخاطئ ما قد قام به من أعمال الخيانة، بنقضه ناموس اللهِ، وتعطيل أحكام الشريعة، مما يجعله في حالة ألم وانسحاق تحت تأثير روح اللهِ الفاحص القلوب. وإذ تتجلى صفات الْمَسِيحِ الطاهرة النقية لمثل هذا الخاطئ فإنه يمقت نفسه ويكرهها.

إنّ دانيال حين رأى الرسول السَّمَاوي، وشهد ما حفّه من المجد والبهاء، بدأ يتملّكه شعور قوي وإحساس جارف بنقصه وضعفه. وقد وصف هذا المنظر العجيب فقال: «وَلَمْ تَبْقَ فِيَّ قُوَّةٌ وَنَضَارَتِي تَحَوَّلَتْ فِيَّ إِلَى فَسَادٍ وَلَمْ أَضْبِطْ قُوَّةً» دانيال ١٠: ٨. إن النَّفْس التي يمسّها الروح على هذا النحو لا بدّ من أنها تكره الأنانية، وتعاف محبة الذات، وتنشدُ، بواسطة بِرّ الْمَسِيحِ، حياةَ الطهارة التي تنسجم وشريعةَ اللهِ، وتتفق مع صفات الْمَسِيحِ وسجاياه.

ويصف الرسول بولس أعماله الظاهرية وحماسه لتطبيقها مقارنة بالناموس، بهذه الكلمات: «مِنْ جِهَةِ الْحَمَاسَةِ، مُضْطَهِدٌ لِلْكَنِيسَةِ؛ وَمِنْ جِهَةِ الْبِرِّ الْمَطْلُوبِ فِي الشَّرِيعَةِ، كُنْتُ بِلاَ لَوْمٍ» فيلبي ٣: ٦. ولكنّه عندما تبين طبيعة الناموس الروحية، رأى نفسه خاطئًا، فهو إذ طابق حرفية الناموس على حياته كما يطبقها الناس على حياتهم الخارجية، رأى نفسَه بلا لوم. ولكنّه حينما تأمّل في عمق الشريعة المقدّسة ورأى نفسَه كما رآه اللهُ، انحنى خجلاً واتضاعًا واعترف بإثمه وذنبه قائلاً: «أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ بِدُونِ النَّامُوسِ عَائِشًا قَبْلاً. وَلَكِنْ لَمَّا جَاءَتِ الْوَصِيَّةُ عَاشَتِ الْخَطِيَّةُ فَمُتُّ أَنَا» رومية ٧: ٩. وهكذا عندما عرف روحانية الناموس ظهرت له شناعة الخطية وبشاعتها، وفارقه كل ما كان في نفسه من زهو وافتخار.

يرى اللهُ تعالى الذنوب تتفاوت في جسامتها، فهناك درجات من الإثم في تقديره كما في تقدير البشر أَيْضًا. ولكن مهما كان هذا الخطأ أَمْر ذاك يبدو ثانويًّا في أعين البشر فلا توجد خطية ثانوية في نظر اللهِ. فحكم الإنسان ناقص وجزئي ولكن اللهَ يقدّر الأشياء كما هي على حقيقتها. فالنَّاس يحتقرون السّكير مثلاً وينذرونه

بسـوء العاقبـة والمصـير، في حـين أنهـم يتغاضـون عـن زجـر أهـل الكبريـاء والأنانيـة والطمـع. ولكـن هـذه الخطايـا هـي الـتي يمقتها اللهُ بنـوع خـاص، لأنها تنـافي طبيعتـه السـمحة ولا تتمـاشى مـع المحبـة الخالصـة الـتي تشـكل محيـط العوالـم غـير السـاقطة. قـد يشـعر مرتكـب إحـدى الخطايـا الجسيمة بالخـزي والفقـر، ويحـس بافتقـاره الى الـبرّ واحتياجـه إلى نعمـة الْمَسِيحِ، ولكـن المتكـبّر لا يشـعر بحاجـة مـا، فتحـول كبريـاؤه دونـه ودون الْمَسِيحِ وتحرمـه مـن البَرَكَات الغزيـرة الـتي جـاء يَسُـوعُ لـكي يمنحـه إياهـا.

فـإنّ ذلـك العشـار المسـكين الـذي صـلّى قائـلاً: «اللهُـمَّ ارْحَمْـنِي أَنَـا الْخَاطِـئَ» لوقـا ١٨: ١٣، اعتـبرَ نفسَـه شريـرًا أثيمًـا. وهكـذا كان يـراه غـيره أَيْضًـا، ولكنّـه شـعر بحـاجته، فجـاء بذنبـه وعـاره إلى اللهِ، ملتمسًـا رحمتَـه تعـالى، وفتـح قلبـه لتأثـيرات روح اللهِ القُـدُّوس كيمـا يجـدده ويغـيّره، وسـلّم نفسـه للنّعمـة القـادرة أن تخلِّصـه وتحـرره مـن سـلطة الخطيـة. وأمـا الفرّيـسي فكانـت صلاتُـه مملـوءةً بـروح الزهـو والـبرّ الـذاتي، ممـا دلّ عـلى أنّ قلبـه كان مغلقًـا دون تأثـير الـرُّوح الْقُـدُس. فإنّـه بسـبب ابتعـاده عـن اللهِ لـم يسـتطع أن يشـعر بنجاسـتِه مقارنـة بكمـال القداسـة الإلهيـة، وإذ لـم يشـعر بحاجتـه مـضى دون أن ينـال شـيئًا.

وإذا تبيّنـتَ مـا أنـت عليـه مـن إثـمٍ وخطيـة، فـلا تنتظـر ريثمـا تُصلـح ذاتَـك، وكـم مـن النـاس يظنّـون أنهـم ليسـوا أهـلاً لأن يأتـوا إلى الْمَسِيحِ. ألعلّـك تحـاول أن تصلـح نفسَـك باجتهـاد؟ و «هَـلْ يُغَـيِّرُ الْكُـوشِيُّ جِلْـدَهُ أَوِ النَّمِـرُ رُقَطَـهُ؟ فَأَنْتُـمْ أَيْضًـا تَقْـدِرُونَ أَنْ تَصْنَعُـوا خَـيْرًا أَيُّهَـا الْمُتَعَلِّمُـونَ الـشَّرَّ» ارميـا ١٣: ٢٣. إن معونتنـا هـي مـن اللهِ فقـط، فيجـب ألا نتطلـع إلى فـرص أفضـل، ويجـب ألا ننتظـر حـتى نصـير أحسـن تطبّعًـا وتخلّقًـا، أو أشـد اقتناعًـا وتوثقًـا، فإننـا مـن أنفسـنا لا نسـتطيع أن نفعـل شـيئًا، بـل يجـب أن نـأتي إلى الْمَسِيحِ كمـا نحـن.

فـلا يخدعـن أحـد نفسـه ويحسـب أن اللهَ مـن فـرط محبتـه وكـرم رحمتـه سـيخلّص أخـيرًا حـتى رافـضي نعمتـه. إنّ الخطيـة لمـرض عضـال، لا يـدرك اسـتحالة البُرء منـه إلا مـن ينظـر إليـه في نـور الصَّلِيـب. عندمـا يظـن النـاس أن اللهَ أرحـم مـن أن يرفـض الخاطـئ، فمـا عليهم إلا أن ينظـروا الى صليب جلجثـة. فنظـرًا إلى أنـه لـم يوجـد أي طريـق آخـر بهـا ينـال الإنسـان الخـلاص، ولأن بـدون هـذه التضحيـة كان مـن المسـتحيل عـلى الجّنـس البـشري أن يهـرب مـن قـوة نجاسـة الخطيـة، ويعـاد الى شركـة القديسـين، كمـا

كان من المستحيل عليه أن يُصبح شريكًا في الحياة الروحية — بسبب هذه جميعها أخذ الْمَسِيحُ جُرم الخطية على نفسه ومات عوضًا عن الخاطئ. فتشهد محبة ابن اللهِ وتخبر تضحيته العظمى بفداحة الخطية، وتعلنان أنّ لا أمل بالنجاة منها ومن سلطانها، ولا رجاء بالحصول على حياة أسمى إلا بخضوع النَّفْس للمخلّص يَسُوعَ خضوعًا كاملاً.

ويحاول أحيانًا الذين يصرون على خطاياهم، أن يبرّروا أنفسهم بقولهم: «نحن مثل اولئك القوم الذين يُدعون مسيحيين. فإنهم ليسوا بأفضل مِنّا تضحية ونكرانًا لذواتهم، وليسوا بأكثر مِنَّا حذر وتعقلاً، بل هم مثلنا يحبّون اللهو والانغماس في الخطية.» وهكذا يتعللون بأخطاء الآخرين، ليبرّروا إهمالهم للواجب. ولكن خطايا الآخرين ونقائصهم لا يمكن أن تبرر إنسانًا لأن اللهَ لم يعطنا مثالاً بشريًّا ناقصًا، وإنما أعطانا ابنه القدوس لكي نتمثل به. إن أولئك الذين ينعون على الْمَسِيحيين سلوكهم الخاطئ، هم جديرون بأن يُظهروا في حياتهم سلوكًا أفضل، ومثلاً أسمى وأنبل، لأنه إذا كانت لديهم فكرة سامية كهذه، بشأن ما يجب أن تكون عليه حياة الْمَسِيحي، أفلا تكون خطيتهم أكبر وأعظم؟ بلى، لأنهم عرفوا الحق ولم يتبعوه.

وحذار من أن تؤجّل أو ترجئ الإقلاع عن خطاياك، بل عليك أن تبادر إلى طلب تطهير قلبك بواسطة يَسُوعَ، لقد أخطأ هذه الحقيقة كثيرون، فحلّت بهم الخسارة الأبدية، ولست أطيل الكلام في هذا المقام عن قصر الحياة وعدم يقينيتها، فللتأجيل خطر أشد وأدهى مما نتصور، لا يفطن إليه الناس كثيرًا، وهو أننا بالتجائنا إلى التأجيل، نرفض توسلات روح اللهِ القدوس، ونؤثر أن نبقى في الخطية على أن نسلم أنفسنا لله. فمن هنا يتأتّى الخطر، ذلك لأنّ الخطية، مهما صغر تقديرنا لها يمكن أن ننغمس فيها على حساب خسارتنا الأبدية، فنحن إن لم نقهرها، قهرتنا وأفضت بنا إلى الهلاك.

كان كلّ من آدم وحواء يقنع نفسَه بأن أمرًا يسيرًا كالأكل من الشجرة المنهيّ عنها لا يمكن أن تترتب عليه نتائج مروّعة وعواقب وخيمة، كالتي حذرهما منها اللهُ، ولكنّ هذا الشيء اليسير إنما كان اعتداء على ناموس اللهِ، ذلك الناموس الثابت المُقدّس. وقد أدى هذا الاعتداء إلى فصل الإنسان عن اللهِ، وتدفّق عوامل الموت والشقاء إلى هذا العالم بكيفية تفوق كلّ وصف. وعلى مدى

الأجيال، سُمعت باستمرار صيحات الحزن والعويل تتصاعد من عالمنا، وصارت الخليقة كلّها تئن وتتمخّض، نتيجة لتمرّد الإنسان وعصيانه، ولقد شعرت السّماء نفسها بنتائج عصيانِ الإنسان، وشقّه عصا الطاعة على اللهِ تعالى، وإنّ جلجثة لتذكّرنا دائما بتلك التضحية العجيبة التي اقتضاها التكفير عن الاعتداء على ناموس اللهِ. فيجب ألا ننظر إلى الخطية كأنها أمر تافه وهيّن. فإنّ كل ما نأتيه من أعمال التعدي، وكلّ ما نبديه من إهمال أو رفض لنعمة الْمَسِيحِ، لا بدّ من أن يكون له ردّ فعل في نفوسنا، إذ تتحجّر قلوبنا، وتنحطّ مداركنا، فلا نصبح فقط أقلّ ميلاً لتلبية دعوة الْمَسِيحِ، بل نصير أَيْضًا أقلّ مقدرة على الخضوع لروح اللهِ القدوس، والاستجابة لتوسّلاتِه الرقيقة.

غير أنّه يوجد أناس يحاولون تهدئة ضمائرهم المضطربة بظنّهم أنّهم قادرون على أن يغيروا مسلكهم الشرير متى شاؤوا، وأنّه في استطاعتهم أن يغيروا مجرى حياتهم حتى بعد استخفافهم بنداءات الرحمة، وإصرارهم على مقاومة روح اللهِ القدوس، وحتى بعد انحيازهم إلى جانب الشَّيْطانِ. ولكن هذا كلّه لا يمكن أن يتمّ بمثل هذه السهولة، إذ تكون أخلاقهم قد تكيّفت تمامًا، على مرّ الزمن، بما حصلوا عليه من الاختبار والتدريب، وتشكّلت بممارسة العادات والتجارب، حتى ليتعذّر على الكثيرين منهم أن يرغبوا في قبول سمة الْمَسِيحِ.

فإنّ أيَّة خصلة من الخصال الخاطئة، أو أيةَّ رغبة من الرغبات الآثمة، إذا تُركت وشأنها، كافية لأن تضعف تأثير الإنجيل، وتبطل مفعوله. وإنّ كل تساهل نبديه نحو الإثم، من شأنه أن يزيد النَّفْس إعراضًا عن اللهِ وصدودًا عن الحق. فالإنسان الذي تبدو عليه مظاهر الجحود والكفر والتبلد وعدم الاكتراث للحق الالهي، إنّما هو يحصد ما قد زرع. وليس بين دفَّتي الكِتَاب المُقَدّس إنذارًا أكثر رهبة ضد الاستخفاف بالشرّ من قول الحكيم: «الشِّرِّيرُ تَأْخُذُهُ آثَامُهُ وَبِحِبَالِ خَطِيَّتِهِ يُمْسَكُ» امثال ٥: ٢٢.

إنّ الْمَسِيحَ على أتم استعداد لتحريرنا من الخطية، ولكنّه لا يفرض علينا ذلك جبرًا وقسر، فإذا كانت إرادتنا — بسبب إصرارنا على الخطية وتمادينا فيها — قد أصبحت تميل بكليتها إلى فعل الشر، وإذا كنا لا نرغب في التحرّر وفي قبول نعمته، فماذا عساه أن يفعل بنا بعد ذلك؟ فنحن إنّما نهلك أنفسنا بإصرارنا على رفض محبته، «هُوَذَا الآنَ وَقْتٌ مَقْبُولٌ. هُوَذَا الآنَ يَوْمُ خَلاَصٍ» «إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ فَلاَ تُقَسُّوا قُلُوبَكُمْ» ٢كورنثوس ٦: ٢ -

عبرانيين ٣: ٧ و ٨.

«لأَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْعَيْنَيْنِ, وَأَمَّا الرَّبُّ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْقَلْبِ» ١صموئيل ١٦: ٧. نعم، إنّه ينظر إلى القلب البشري الذي تعتمل فيه شتّى العواطف والأحاسيس من فرح وحزن، القلب الجائل التائه، المملوء بكلّ زيفٍ ونجاسة، فيعلم بواعثَه ونيّاته ومقاصده. فتوجه إليه أيها الخاطئ، واعرض أمامه نفسك بكلّ ما فيها من تلوّث وتلطخ، واكشف خفاياها أمام عينه التي ترى كلَّ شيء، واصرخ مردداً قول المرنّم: «اخْتَبِرْنِي يَا اَللهُ وَاعْرِفْ قَلْبِي. امْتَحِنِّي وَاعْرِفْ أَفْكَارِي. وَانْظُرْ إِنْ كَانَ فِيَّ طَرِيقٌ بَاطِلٌ، وَاهْدِنِي طَرِيقًا أَبَدِيًّا» مزمور ١٣٩: ٢٣ و ٢٤.

كثيرون يقبلون الدين عقليًّا، ويحملون صورة التقوى، في حين أن القلب غير متجدد. فلتكن طلبتك: «قَلْبًا نَقِيًّا اخْلُقْ فِيَّ يَا اَللهُ، وَرُوحًا مُسْتَقِيمًا جَدِّدْ فِي دَاخِلِي» مزمور ٥١: ١٠. ولكن كن أمينًا مع نفسك، باذلاً كلّ جد واهتمام، وتشبّث وإصرار، كما لو كنت مشرفًا على الهلاك. فهذا أمر يجب تسويته، ويجب أن يحلّ بينك وبين اللهِ تعالى بصفة نهائية لأنّ التعلّق برجاء وهمي يكفي وحده لإهلاكنا.

أدرس كلمة اللهِ بروح الصَّلاة، فإنّ فيها شريعته، وحياة الْمَسِيح، ومباديء «الْقَدَاسَةِ الَّتِي بِدُونِهَا لَنْ يَرَى أَحَدٌ الرَّبَّ» عبرانيين ١٢: ١٤، فضلاً عن أنها تبكتنا على الخطية وتعلن لنا طريق الخلاص بوضوح وجلاء. انصت لها، باعتبارها صوت اللهِ الذي يخاطب نفسك.

ومتى أدركت جسامة خطيتك، وتجلت لك نفسك على حقيقتها فلا تستسلم لليأس والقنوط. فإنما لأجل الخطاة قد جاء الْمَسِيحُ من السّماء. فيا له من حبّ فائق عجيب! إذ إننا لا نصالح اللهَ، بل هو الذي «كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحًا الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ» ٢كورنثوس ٥: ١٩. إنّ اللهَ بحنوّ ومحبة هو الذي يستعطف قلوب أولادّه الشاردين، ليردّهم عن زيغهم وضلالهم. وليس من أبٍ بشري يتسع صبره وحلمه لاحتمال عيوب أولاده وأخطائهم، كما يفعل اللهُ مع الذين يحاول انقاذّهم. ومَن مثل اللهِ في عطفه وحنوّه على الخاطئ الأثيم؟ وليس مِن شفاه بشرّية سكبت هذه التوسلات الرقيقة التي بها يناشد اللهُ الإنسان الضال كما يفعل هو. إنّ كلّ مواعيدِه وتحذيراتِه إنْ هي إلا تنسمات محبته التي لا يُنطق بها.

عندما يأتي الشَّيْطانُ ويوسوس لك أنك خاطيء عظيم، تطلع إلى فاديك وتحدث

عـن اسـتحقاقاته. وجِّـه نظـرك الى نـوره فتجـد العـون ، ثـم اعـترف بخطيتـك، وانتهـر عـدوَّ الخـير، وقـل لـه «إنّ الْمَسِـيحَ يَسُـوعَ جـاء إلى العالـم ليُخلّـص الخطـاة» ١كورنثـوس ١: ١٥. وإنـك يمكـن أن تَخْلُـص بواسـطة محبتـه الفائقـة. عندمـا سـأل الْمَسِـيحُ سـمعانَ سـؤالاً فيمـا يختـص بمديونـين كان أحدهمـا مدينًـا بمبلـغ زهيـد، والآخـر كان مدينًـا بمبلـغ جسـيم جـدًّا، ولكـن السـيد سـامح الإثنـين، فأيهمـا يكـون أكـثر حبًّـا لسـيّده؟ أجـاب سـمعان قائـلاً: «أَظُـنُّ الَّـذِي سَـامَحَهُ بِالأَكْثَـرِ» لوقـا ٧: ٤٣. فنحـن كنـا مـن أَرْدَأ الخطـاة، ولكـن الْمَسِـيحَ مـات لـكي نوهـب الغفـران.

إنّ اسـتحقاقات ذبيحتـه وتضحيتـه لتكفـي للتشـفّع فينـا أمـام الآب. والذيـن سـامحهم اللهُ بالأكـثر سـيحبّونه أكـثر، وسـيكونون أقـرب النـاس إلى عرشـه، ليسـبحوه عـلى محبّتـه العظمـى، وتضحيتـه الـتي لا حـدّ لهـا. فإننـا، كلمـا ازددنـا إدراكًا لمحبـة اللهِ، تحققنـا أكـثر فأكـثر حقيقـة الخطيـة وطبيعتهـا، وعرفنـا أنهـا خاطئـة جـدًّا. وعندمـا نـرى عمـق محبتـه الـتي أحبنـا بهـا، ونـدرك شـيئًا مـن تضحيتـه اللامحـدودة لأجلنـا، تنفطـر قلوبنـا حزنًـا وتـذوب أفئدتنـا حنـوًّا وتعطّفًـا.

الفصل الرابع

راحة الضمير

«مَنْ يَكْتُمُ خَطَايَاهُ لاَ يَنْجَحُ وَمَنْ يُقِرُّ بِهَا وَيَتْرُكُهَا يُرْحَمُ» أمثال ٢٨: ١٣.

إذن فما يشترطه اللهُ علينا، لكي يمنحنا رحمته ويهبنا عفوه وغفرانه، سهل وعادل ومعقول. فهو لا يطلب مِنَّا عمل أمر يُحزننا أو يُسبب لنا ألمًا، ولا يفرض علينا معاناة السفر وتحمل المخاطر لأداء حجٍّ أو بلوغ مزار. ولا يأمرنا بأن نقوم بأعمالٍ تقشّفية وممارسات تعذيبية، تكفيرًا عما اقترفناه من تعدّ وعصيان، وإنما كلّ ما يطلبه اللهُ مِنَّا لكي يشملنا برحمتِه هو الاعتراف بخطايانا والإقلاع عنها.

يقول الرسول: «اِعْتَرِفُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ بِالّزَلاَّتِ، وَصَلُّوا بَعْضُكُمْ لأَجْلِ بَعْضٍ لِكَيْ تُشْفَوْا» يعقوب ٥: ١٦. فلنعترف بخطايانا لله، فهو وحده قادر على أن يهبنا الغفران، ولنعترف أَيْضًا بعضّنا لبعض بالزلات، فإذا بدرت منك إساءة نحو صديق لك أو جار، فمن حقّه عليك أن تقرّ له بخطئك كما أنّه من الواجب عليه هو أَيْضًا أن يرضى ويصفح. ثم بعد ذلك عليك أن تلتمس عفو اللهِ وغفرانه، لأنّ ذلك الأخ الذي تطاولت عليه وجرحتَه إنّما هو مُلك اللهِ، فإن أضررت به، فأنت تخطيء ضد خالقه وفاديه. ومتى اعترفت لله بخطيتك ولأخيك بذنبك، فإن القضية تصبح أمام الوسيط الحقيقي الوحيد ورئيس الكهنة الأعظم الذي هو «مُجَرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا، بِلاَ خَطِيَّةٍ»، ومستعد «أن يرثي لضعفاتنا»، عبرانيين ٤: ١٥، وقادر أن يطهرنا من كل وصمة إثم.

إذن فأولئك الذين لم يذللوا نفوسهم أمام اللهِ، معترفين بذنبهم لم يقوموا بعد بأول شرط من شروط قبولهم، لأننا إن كنا لم نتب إلى اللهِ توبة لا رجعة عنها ولا انتكاص، وإن كنا لم نعترف له بخطايانا

بتذلل وانكسار، ولم ننظر إلى الإثم نظرة مقت واستنكار، فلا نكون حتى الآن قد طلبنا حَقًّا الصفح والغفران. وإن كنا لم نطلب، فنحن لم نجد بعد سلام اللهِ، إنه لا يوجد سبب لعدم نيلنا غفرانًا عن خطايانا الماضية سوى أننا غير راغبين في التذلل أمام اللهِ والإذعان لشروط كلمة الحق. فإن اللهَ تعالى قد أعطانا تعليمات صريحة في هذا الشأن تبين لنا أن الاعتراف بالخطايا، سواء أكان بصفة فردية أَمْ علنية، يجب أن يصدر عن القلب، ويجب أن يعترف به الفم ويردده اللسان، لأن الاعتراف ليس مجرد لغو أو كلام اعتباطي وليس هو مجرد تصريح ينتزع من صاحبه انتزاعًا، دون أن يدرك جسامة خطيته، ويشعر بشدة نفوره منها واستنكاره لها. وإنما الاعتراف الصحيح الذي يجد سبيلاً إلى رحمة اللهِ وعفوه، هو الذي يصدر من أعماق النَّفْس ويصعد من صميم القلب. كما يقول المرنّم: «قَرِيبٌ هُوَ الرَّبُّ مِنَ الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، وَيُخَلِّصُ الْمُنْسَحِقِي الرُّوحِ» مزمور ٣٤: ١٨.

فالاعتراف الحقيقي هو الذي يتسم بالتحديد، ويتناول الإقرار بالخطايا على وجه التخصيص. هذه الخطايا قد تكون من النوع الذي يجب عرضه أمام اللهِ فقط، وقد تكون غلطات يجب أن نعترف بها أمام من ألحقنا بهم ضررًا وسوءًا وقد تكون أَيْضًا ذات صفة علنية، فيجب أن نعترف بها جهارًا. ولكن في كل الحالات يجب أن يكون الاعتراف محددًا ومنصبًّا على الاعتراف بالخطية التي ارتكبناها.

ففي زمن صموئيل ضلّ الإسرائيليون عن اللهِ، وكانوا يعانون من نتائج خطيتهم لأنهم فقدوا إيمانهم وثقتهم به، وتيقنهم من قدرته وحكمته لإدارة الحكم، والدفاع عن قضيته وتزكيتها. لقد تحوّلت قلوبهم عن الحاكم الأعظم الذي بيده مقاليد الكون بأسره رغبة منهم في أن يكون لهم مَلك أسوة بمَن حولهم مِن الأمم والشعوب. وقد تمّ لهم ما أرادوا ولكنَّهم باؤوا بالفشل والخيبة، ولم يتذوقوا طعم السلام والاستقرار حتى أتوا إلى اللهِ واعترفوا بما اقترفوه من جحود وإنكار، إذ قالوا لصموئيل: «صَلِّ عَنْ عَبِيدِكَ إِلَى الرَّبِّ إِلهِكَ حَتَّى لاَ نَمُوتَ، لأَنَّنَا قَدْ أَضَفْنَا إِلَى جَمِيعِ خَطَايَانَا شَرًّا بِطَلَبِنَا لأَنْفُسِنَا مَلِكًا» ١صموئيل ١٢: ١٩. فالاسرائيليون إذ اقتنعوا بأن نكرانهم للجميل هو الذي أقصاهم عن اللهِ، وأدّى إلى قطع روابط الشركة بينه وبينهم، لم يجدوا مَفَرًّا من تحديد اعترافهم بذكر هذه الخطية

بالـذات، إذ قالـوا: «لأَنَّنَـا قَـدْ أَضَفْنَـا إِلَى جَمِيـعِ خَطَايَانَـا شَرًّا بِطَلَبِنَـا لأَنْفُسِـنَا مَلِـكًا».

غـير أن الاعـتراف لا يكـون مقبـولاً عنـد اللهِ، إلا إذا كان مقترنًـا بالتوبـة والإصـلاح. فيجـب أن تتنـاول الحيـاة تغيـيرات ظاهـرة، ويجـب العمـل عـلى نبـذ كل شيء يـسيء إلى اللهِ تعـالى. ولـن يتـأتى كل هـذا إلا نتيجـة لحـزن حقيقـي وتوبـة خالصـة. وأمـا الإصـلاح الـذي يتعـين علينـا أن نقـوم بـه مـن جانبنـا فقـد بيَّنـه النَّـبِيّ إشـعياء جليًـا وواضحًـا في قولـه: «اِغْتَسِـلُوا. تَنَقُّـوا. اعْزِلُـوا شَرَّ أَفْعَالِكُـمْ مِـنْ أَمَـامِ عَيْـنَيَّ. كُفُّـوا عَـنْ فِعْـلِ الـشَّرِّ. تَعَلَّمُـوا فِعْـلَ الْخَـيْرِ. اطْلُبُـوا الْحَـقَّ. انْصِفُـوا الْمَظْلُـومَ. اقْضُـوا لِلْيَتِيـمِ. حَامُـوا عَـنِ الأَرْمَلَـةِ» إشـعياء ١: ١٦ و ١٧. كذلـك نـوَّه بـه حزقيـال في قولـه: «إِنْ رَدَّ الشِّرِّيـرُ الرَّهْـنَ وَعَـوَّضَ عَـنِ الْمُغْتَصَـبِ وَسَـلَكَ فِي فَرَائِـضِ الْحَيَـاةِ بِـلاَ عَمَـلِ إِثْـمٍ, فَإِنَّـهُ حَيَـاةً يَحْيَـا. لاَ يَمُـوتُ» حزقيـال ٣٣: ١٥. وأَيْضًـا فصَّـله الرسـول بولـس في قولـه: «فَإِنَّـهُ هُـوَذَا حُزْنُكُـمْ هَـذَا عَيْنُـهُ بِحَسَـبِ مَشِـيئَةِ اللهِ، كَـمْ أَنْشَـأَ فِيكُـمْ مِـنَ الاِجْتِهَـادِ، بَـلْ مِـنَ الاِحْتِجَـاجِ، بَـلْ مِـنَ الْغَيْـظِ، بَـلْ مِـنَ الْخَـوْفِ، بَـلْ مِـنَ الشَّـوْقِ، بَـلْ مِـنَ الْغَـيْرَةِ، بَـلْ مِـنَ الاِنْتِقَـامِ. فِي كُلِّ شَيْءٍ أَظْهَرْتُـمْ أَنْفُسَـكُمْ أَنَّكُـمْ أَبْرِيَـاءُ فِي هَـذَا الأَمْـرِ» ٢كورنثـوس ٧: ١١.

فالخطيـة مـتى أماتـت الشَّـعور الأدبي، تجعـل فاعـل الإثـم لا يـرى مـا في صفاتـه مـن نقائـص وعيـوب، ولا يتحقـق فداحـة الـشر الـذي ارتكبـه. فمـا لـم يخضـع لقـوة الـرُّوح الْقُـدُس المقنعـة، يظـل غـير مـدرك لخطيتـه إدراكا كاملاً، وتكـون اعترافاتـه خاليـة مـن روح الجـد والإخـلاص إذ يحـاول عنـد كل اعـتراف أن يلتمـس لنفسـه الأعـذار، ناسـبًا أخطـاءه إلى الظـروف الـتي أحاطـت بـه، والـتي لولاهـا لمـا ارتكـب مثـل هـذا الذنـب الـذي يـلام عليـه.

فـإنّ آدم وحـواء بعـد أن أكلا مـن الشّـجرة المنهـيّ عنهـا، شـعرا بالخـزي والعـار وأحسَّـا بالرهبـة والخـوف. وكان جـلّ همهمـا في مبـدأ الأمـر منصرفًـا إلى تلمّـس وسـيلة الاعتـذار عـن خطيتهمـا، والتخلّـص مـن حكم المـوت الرهيـب. فلمـا بـدأ اللهُ يسـألهما عـن الخطيـة الـتي اقترفاهـا، أخـذ آدم يلقـي باللـوم عـلى اللهِ تعـالى وعـلى المـرأة، إذ قـال: «الْمَـرْأَةُ الَّـتِي جَعَلْتَهَـا مَعِـي هِـيَ اعْطَتْنِـي مِـنَ الشَّـجَرَةِ فَأَكَلْـتُ» تكويـن ٣: ١٢. وكذلـك المـرأة بدورهـا أخـذت تنحـي باللائمـة عـلى الحَـيَّة، إذ قالـت: «الْحَيَّـةُ غَرَّتْـنِي فَأَكَلْـتُ» تكويـن ٣: ١٣، كأنهـا تعـترض عـلى اللهِ تعـالى قائلـة لمـاذا خلقـت الحَيَّـة ولمـاذا تركتهـا تتسـلل إلى جنـة عـدن؟ تلـك كانـت الأسـئلة المتضمنـة في

عذرها عن خطيتها. وهكذا ألقت التبعة على اللهِ سبحانه، وجعلته مسؤولاً عن زلتهما وسقطتهما. ولا عجب في ذلك فإن روح التنصّل من المسؤولية وتبرئة أنفسنا تولدت في الأصل عند إبليس الملقّب بأبي الكذاب ومنه سرت إلى كل ذرية آدم وحواء. مثل هذه الاعترافات ليست بإيحاء من الروح الإلهي، وبالتالي فهي غير مقبولة البتة عند اللهِ. أمّا التوبة الصحيحة فإنّها تجعل الإنسانَ يحمل ذنبه بنفسه، ويقرّ به في غير خداع ونفاق، كما فعل ذلك العشَّار الذي لم يجرؤ أن يرفع عينيه نحو السّماء، بل قرع على صدره وصرخ قائلاً: «اللهُمَّ ارْحَمْنِي أَنَا الْخَاطِئَ» لوقا ١٨: ١٣. فعاد إلى بيته مبرّرًا. وهكذا يتبرر كل من اعترف بذنبه لأن يَسُوعَ نفسَه يتشفَّع بدمه لأجل كل نفس تائبة.

وإنّ الأمثلة الواردة في كلمة اللهِ بشأن التوبة الحقيقية توضح لنا روح الاعتراف الصحيح الخالي من كل تعلّل وتنصّل، وتبين لنا الإقرار الخالص الذي لا يشوبه البرّ الذاتي. فبولس، مثلاً، لم يحاول قط أن يبريء نفسه مما اقترفه ضد الكنيسة، بل هو يصوّر خطيته كأشدّ ما تكون اسوداداً وإظلامًا دون أن يحاول استصغار ذنبه، إذ يقول: «وَفَعَلْتُ ذَلِكَ أَيْضًا فِي أُورُشَلِيمَ فَحَبَسْتُ فِي سُجُونٍ كَثِيرِينَ مِنَ الْقِدِّيسِينَ آخِذًا السُّلْطَانَ مِنْ قِبَلِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ. وَلَمَّا كَانُوا يُقْتَلُونَ أَلْقَيْتُ قُرْعَةً بِذَلِكَ. وَفِي كُلِّ الْمَجَامِعِ كُنْتُ أُعَاقِبُهُمْ مِرَارًا كَثِيرَةً وَأَضْطَرُّهُمْ إِلَى التَّجْدِيفِ. وَإِذْ أَفْرَطَ حَنَقِي عَلَيْهِمْ كُنْتُ أَطْرُدُهُمْ إِلَى الْمُدُنِ الَّتِي فِي الْخَارِجِ» أعمال ٢٦: ١٠ و ١١. بل ولم يتردد أن يقول «أَنَّ الْمَسِيحَ يَسُوعَ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ لِيُخَلِّصَ الْخُطَاةَ الَّذِينَ أَوَّلُهُمْ أَنَا» ١تيموثاوس ١: ١٥.

أجل، فانما بالتواضع والانكسار، والتوبة الصادقة يستطيع الخاطئ أن يقدّر شيئًا من محبة اللهِ، وشيئًا مما أنفق في جلجثة. فيأتي إلى اللهِ كما يأتي إلى أبيه المُحِب، معترفًا بكل ذنوبه، وتائبًا عن كل خطاياه، لأنه مكتوب: «إِنِ اعْتَرَفْنَا بِخَطَايَانَا فَهُوَ أَمِينٌ وَعَادِلٌ. حَتَّى يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَيُطَهِّرَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ» ١يوحنا ١: ٩.

الفصل الخامس

التكريس التام

بهذا وعدنا اللهُ: «تَطْلُبُونَنِي فَتَجِدُونَنِي إِذْ تَطْلُبُونَنِي بِكُلِّ قَلْبِكُمْ» إرميا ٢٩: ١٣.

إنْ لم نطلب اللهَ بكل قلوبنا لا نجده، وإن لم نذعن له إذعانًا كاملاً لا نتغيّر عن شكلنا لنكون مشابهين صورته ومثاله، لأننا بالطبيعة أعداء اللهِ، وقد وصفنا الرُّوح الْقُدُس بأننا أموات «بِالذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا» أفسس ٢: ١، وشخَّص حالتنا فقال: «كُلُّ الرَّأْسِ مَرِيضٌ وَكُلُّ الْقَلْبِ سَقِيمٌ... لَيْسَ فِيهِ صِحَّةٌ» إشعياء ١: ٥ و ٦، فنحن مُمسَكون في فخاخ إبليس مُقتنصون لإرادته، ٢تيموثاوس ٢: ٢٦. غير أن اللهَ تعالى يريد شفاءنا ويرغب في تحريرنا، وهما أمران يستوجبان تغييرًا شاملاً في صفاتِنا وتجديدًا كاملاً في طبيعتِنا ولا يصيران إلا بتسليم قلوبنا لله تسليمًا تامًا.

نعم، إنّ محاربة الأثرة فينا هي أعظم معركة دارت رحاها إطلاقًا، لأنَّ تسليم النَّفْسِ لله وإخضاع المشيئة لمشيئته يستلزمان حربًا عوانًا وصراعًا عنيفًا، والنَّفْس لا تتجدد في القداسة ما لم تخضع لربِّها خضوعًا مطلقًا.

غير أنّ سياسة اللهِ ليست، كما يريد أن يصورها لنا الشَّيْطانُ، مؤسسة على تحكّم غاشم يتطلب مِنّا تسليمًا أعمى. يناشد اللهُ عقولنا ويهيبُ بضمائرنا إذ يدعونا قائلاً، «هَلُمَّ نَتَحَاجَجْ» إشعياء ١: ١٨، فهو تعالى يأبى أن نتعبّد له قسرًا واضطرارًا، لأن استعمال الوسائل القهرية والأساليب الجبرية يعيق تقدّمنا الفكري وتحسننا الخُلُقي ويجعل مِنّا آلة صمّاء، فما لغرض كهذا خلقنا اللهُ، بل ليسمو الإنسان الذي توَّج به عمل الخلق إلى أقصى مراتب الرقي وأسمى غايات التقدم، جاعلاً أمامنا ذروة البَرَكَة التي نبلغُها بنعمته، وداعيا إيانا أن نبادر بتسليم أنفسنا له لكي يعمل فينا إرادته ويتمم فينا مشيئته. فالأمر متروك لنا لنختار فيما إذا كنا سنتحرر من

عبودية الخطية، لكي نشترك في حرية مجد أولاد اللهِ.

إنَّ تكريس ذواتِنا للهِ ليستلزم حتمًا أن نتنحّى عن كل شيء من شأنه أن يفصلنا عنه، كما أوضح ذلك يَسُوعُ في حديثه مع تلاميذه، إذ قال: «فَكَذَلِكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ لاَ يَتْرُكُ جَمِيعَ أَمْوَالِهِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا» لوقا ١٤: ٣٣. فكل شيء يحوِّل القلب عن اللهِ يجب نبذه وتركه، فالمال صنم يتعبد له كثيرون ممن يتهافتون على الثراء. ومحبة المال هي السلسلة الذهبية التي يستأسرهم الشَّيْطانُ بها. وآخرون يتعبدون للشهرة والجاه العالمي، وغيرهم يتعبدون لصنم التكاسل والتراخي وعدم تحمُّل العواقب والفرار من المسؤوليات. فكل هذه أغلال يجب تحطيمها، لأننا لا نقدر أن نجزّيء حياتنا بين اللهِ والعالم، بل لا نكون أولادًا لله حتى نكرس أنفسنا له تكريسًا تامًا.

ومن الناس من يدّعون بأنهم يعبدون اللهَ، بينما هم لا يعتمدون إلا على برّهم الذاتي، فهم يريدون أن يحفظوا الناموس، ويمارسوا حياة الفضيلة، ويحصلوا على الخلاص، بمحض اتكالهم على جهودهم الشخصية، دون أن يكون الباعث على ذلك كله محبة الْمَسِيحِ. فهم يسعون لممارسة واجبات الحياة الْمَسِيحية كفرض يطلبه اللهُ منهم لحصولهم على السَّمَاء. فمثل هذه الديانة لا تفيد شيئًا ولكن متى حل الْمَسِيحُ في حياتنا، امتلأت قلوبنا بمحبته، واغتبطت نفوسنا بعِشرته، فلا نلبث أن ننسى ذواتِنا، ونجعله هو مركز تفكيرنا ومحور تأملاتنا، فمن ثم تكون بواعثنا كلها مدفوعة بمحبة الْمَسِيحِ، لأن الذين تحصرهم محبة اللهِ لا يعودون ينظرون إلى الحياة الْمَسِيحية كأنها فرض يؤدى أو واجب يقضى، لا يحاولون أن يظفروا منها بأكبر مكسب وأقل خسارة بل تكون غايتهم القصوى هي التشبه بالْمَسِيحِ، والعمل بموجب مشيئته وإرادته، مبدين من الاهتمام ما يتفق والغرض الذي ينشدونه. فإن الاعتراف بالْمَسِيحِ إذا لم يكن صادرًا عن حُب عميق فإنه لا يعدو أن يكون مجرّد كلمات عابرة وممارسات شكلية، وحياة كلها عبودية.

أفتشعر بأنه كثير عليك أن تضحي بكل شيء لأجل الْمَسِيحِ؟ إذن فسل نفسك: ماذا أعطى الْمَسِيحُ لأجلي؟ إنه بذل كل شيء لفدائِنا — حبَّه وحياتَه وآلامه أَفَنَبْخَلُ عليه بقلوبنا، ونحن لسنا أهلا لمحبة عظمى كهذه؟ وإنما لكوننا نتمتّع في كل لحظة من لحظات حياتنا بالاشتراك في بَرَكَات نعمته، صرنا لا ندرك تمامًا عمق

الجهل والبؤس اللذين أنقذنا منهما. وهل نستطيع أن نراه مطعونًا بخطايانا، ثمّ نزدري محبته وتضحيته؟ وهل نستطيع أن نرى تواضع رب المجد الذي لا حدّ له ثم نتذمرّ لأنه لا سبيل إلى دخول الحياة إلا بالصراع وإذلال النَّفْس؟

فكم من أناسٍ ذوي قلوب متكبّرة يتساءلون قائلين: وما ضرورة التذلل والاتضاع، والحزن والتوبة؟ وهل يلزم أن نمارس كل هذه الأمور حتى يؤكد اللهُ لنا قبولنا؟ وردًّا على هذا السؤال لا يسعني إلا أن أشير إلى الْمَسِيحِ نفسه الذي كان منزّها عن الخطية، فضلاً عن كونه رئيس السَّمَاء، ولكنه إذ ناب عن جنسنا الأثيم صار خطية لأجلنا «وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ وَهُوَ حَمَلَ خَطِيَّةَ كَثِيرِينَ وَشَفَعَ فِي الْمُذْنِبِينَ» إشعياء ٥٣: ١٢.

ولكن ما هو هذا «الكلّ» المطلوب مِنَّا أن نقدّمه لله؟ إنّه القلب، وما هو إلا قلب ملوّث بالاثم والخطية يريد الْمَسِيحُ أن يطهره بدمه الزكي، ويخلّصه بمحبته الفائقة! ومع ذلك فإن ما يدعو للأسف والحسرة هو أن الناس يستصعبون أن يعطوا هذا «الكلّ» لله، إنني أخجل من سماع هذا الكلام وأخجل من الكتابة عنه.

على أن اللهَ تعالى لا يطلب مِنَّا أي شيء يرى من مصلحتنا أن نستبقيه لأنفسنا، لأنه في كل ما يعمله ويجربه، إنما يضع نصب عينيه خير خلائقه وصالح بنيه. فيا ليت أولئك الذين لم يختاروا الْمَسِيحَ بعد، يدركون أن لديه أشياء فضلى يريد أن يمنحهم إياها. وإنّ هذه الأشياء تفوق كثيرًا ما ينشدونه هم أنفسهم، فإن الإنسان حين يفكر ضد مشيئة اللهِ، ويعمل ضد

إرادته تعالى، إنما يسيء إلى نفسه ويجحف بصالِحه. لأن الفرح الحقيقي لا يتأتى بالسير في الطريق المحظور، والخروج على وصية اللهِ الذي يعرف تمامًا كل ما يؤول لخير خلائقه، فإن طريق الإثم والتعدّي إنما ينتهي بنا إلى البؤس والتردّي.

وإنه لمن الخطأ أن نظن أنّ اللهَ تعالى يرضى بأن يرى أولاده يتألّمون، لأن السَّمَاء جميعها يهمها إسعاد الإنسان. كما أن أبانا السَّمَاوي لا يسدّ مسالك السَّعادة أمام أحدٍ من خلائقه، وإنما هو يهيب بنا أن نقلع عن الانغماس في اللذات التي تُفضي بنا إلى اليأس والشقاء، فضلاً عن أنها توصد أمامَنا باب السعادة، وتحول دون دخولنا السّماء. كذلك يَسُوعُ الفادي على استعداد لأن يقبلنا كما نحن، على ما نحن عليه من ضعف ونقص وعوز، وهو لن يقتصر فقط على تطهيرنا من الخطية ومنحنا الفداء بدمه، بل هو أَيْضًا على استعداد لأن يشبع رغائب كل الذين يلبّون دعوته ويحملون نيره، إذ هو يريد أن يمنح الراحة والسلام لكل من يأتي إليه ملتمسًا خبز الحياة. وإنما هو يتطلب مِنَّا أن نقوم بتلك الواجبات التي تقود خطواتنا إلى أوج السعادة والهناء، مما يستحيل بلوغه على كل من يخالف وصية اللهِ. إنَّ حياةَ البهجة الحقيقية لن تتهيأ إلا إذا تصوَّر الْمَسِيحُ فينا «رجاء المجد».

ولرب سائل: كيف أسلم نفسي لله؟ فأنت إذًا راغب في تسليم نفسك له، ولكنّك تشعر بعجزك الروحي وقصورك الأدبي، إذ ترى نفسك مُستعبَدًا للشكوك المقلقة، ومستأسرًا للعادات الشريرة، متشبثًا بحبال خطاياك، حتى صارت عهودك محلولة، وعزيمتك مفلولة، فأنت لا تستطيع السيطرة على أفكارك ولا التحكم في نوازعك ومشاعرك. وتيقنك عدم وفائك بوعودك قد أضعف ثقتك في إخلاصك وجعلك تتشكك في إمكانية قبولك لدى اللهِ، ومع ذلك، فيجب ألا تقنط أو تيأس، لأن كل ما يلزمك في مثل هذا الموقف، هو أن تفهم قوة الإرادة وتعرفها على الوجه الصحيح. فهي عبارة عن القوة الضابطة التي أوجدها اللهُ في طبيعة الإنسان. وهي القوة التي بها نقرر وبها نختار. فيتوقف مصيرك على عمل الإرادة، وعلى حُسن توجيهها واستخدامها. فالقدرة على الاختيار هي عطية اللهِ للبشر وعليهم استخدامها. فإن كنت عاجزًا عن تجديد قلبك وتغيير عواطفك، فما أنت بعاجز عن أن تختار، وما أنت بقاصر عن أن تسلّم لله نفسك وإرادتك، ومتى سلمت له ذاتك فإنه لا يلبث أن يعمل في قلبك لأن تريد وأن تعمل

مـن أجـل المـسرّة. وعندئـذ تصبـح طبيعتـك تحـت سـيطرة الـروح. ويصبـح الْمَسِـيحُ محـور تفكـيرك، وقِبلـة عواطفـك وشـعورك.

ولـئن تكـن الرغبـة في الحصـول عـلى الصـلاح والقداسـة هـي عـين الصـواب، إلا أنّـه يجـب أن لا نقـف في جهادنـا عنـد حـدّ الرغبـة فقـط، إذ إنَّ كثيريـن سـيهلكون لأنّ كل همّهـم كان مقتـصرًا عـلى التعلّـل بالرغبـة والأمـل، دون أن يسـلموا أنفسـهم لله، ويختـاروا الْمَسِـيحَ نصيبًـا لهـم.

ولكنّـك إذا أحسـنت اسـتخدام إرادتِـك، وسـلَّمت نفسـك للمسـيح، فـلا بـدّ مـن أن يشـمل حياتـك تغيـير كلّي، وتصبـح متحالفًـا مـع القـوة الـتي هـي فـوق كل رياسـة وسـلطان. عندئـذ يمـدّك اللهُ بـكلّ قـوّة علويـة، ليحفظـك ويثبّتـك. وهكـذا بخضوعك الدائـم لله، تسـتطيع أن تحيـا حيـاة جديـدة، حيـاة الإيمـان العامـل بالمحبـة.

الفصل السَّادس

السَّلام التام

إذا أحيا الرُّوح الْقُدُس ضميرك، أدركت شيئًا من شرّ الخطية وقوّتها وجرمها وويلاتها. فعافتها نفسُك، لأنك شعرت بأنها قد فصلتك عن اللهِ واستعبدتك بسلطانها. وكلّما حاولت التحرّر منها، تأكدت من عجزك وتَتَبَّتَ من قصورك. وعرفت أنّ بواعثَك دنسة وقلبَك نجس وحياتك مليئة بالأنانية وحب الذات، مفعمة بالخطية. فأصبحت الآن تتوق إلى الغفران وتشتاق إلى التطهير والعتق، فما عساك أن تفعل لكي تصير في وفاق مع اللهِ وتتصف بصفاته؟

إنّ مسيس حاجتك هي إلى السَّلام، سلام اللهِ الناشيء عن غفران الخطية وانسكاب المحبة في نفسك. ولا تقدر أن تشتري هذا السَّلام بالمال ولا تستطيع أن تناله بالعقل ولا أن تدركه بالحكمة. ومجهوداتك تخيّب أملك في الحصول عليه. ومع ذلك هو في طاقة يدك، لأنّ اللهَ قد وهبه لك مجانًا «بِلاَ فِضَّةٍ وَبِلاَ ثَمَنٍ» إشعياء ٥٥: ١. كما قال أَيْضًا: «إِنْ كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَالْقِرْمِزِ تَبْيَضُّ كَالثَّلْجِ. إِنْ كَانَتْ حَمْرَاءَ كَالدُّودِيِّ تَصِيرُ كَالصُّوفِ» إشعياء ١: ١٨، «وَأُعْطِيكُمْ قَلْبًا جَدِيدًا، وَأَجْعَلُ رُوحًا جَدِيدَةً فِي دَاخِلِكُمْ» حزقيال ٣٦: ٢٦.

وها أنت قد اعترفت بخطاياك، وتحوَّلت عنها في قلبك. وعزمت أن تسلّم نفسك لله، فاذهب إليه تعالى واطلب منه أن يغسلك من ذنوبك ويجعل فيك قلبًا جديدًا. ثم صدِّق أنّ الرَّبَ قد فعل هذا كلّه لأنّه وعد به، فيكون لك. وقد علَّم يَسُوعُ بهذه الحقيقة لما كان هنا على الأرض بأن العطية التي يعدنا بها اللهُ علينا أن نؤمن أننا نالها فتكون لنا. فوعده الأكيد هو: «كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ فَيَكُونَ لَكُمْ» مرقس ١١: ٢٤. شفى

يَسُوعُ المرضى عندما آمنوا بقدرته. لقد ساعدهم في ما كانوا ينظرون ليُكسبهم الثقة به في ما لم ينظروا والإيمان بقدرته على غفران الخطايا أَيْضًا، كما صار في حادثة شفاء المفلوج مثلاً، إذ قال للجمهور: «لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لِابْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَانًا عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا»، حينئذ قال للمفلوج: «قُمِ احْمِلْ فِرَاشَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ»، متى ٩: ٦، وأيَّد البشير يوحنا هذه الحقيقة وهو يدوّن الآياتِ التي صنعها يَسُوعُ إِذْ قال «وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةٌ بِاسْمِهِ»، يوحنا ٢٠: ٣١.

من القصص التي رواها الإنجيل بكل بساطة عن الكيفية التي شفى بها يَسُوعُ المرضى، يمكننا أن نتعلّم شيئًا عن الإيمان به لغفران الخطية. فلنرجع إذًا إلى المريض المضطجع عند بِرْكَة بيت حسدا. كان ذلك المسكين ضعيفًا جدًّا وقد بلغ العجز منه حد لم يستطع معه أن يستعمل أوصاله لمدة ٣٨ سنة، ومع ذلك أمره يَسُوعُ قائلاً: «قُمِ احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ» يوحنا ٥: ٨. فلو احتج المريض قائلاً: اشفني ياسيد فأطيع أمرك، لما نال الشفاء. ولكنه لم يحتج بل صدَّق كلمة الْمَسِيحِ وآمن أنه قد شُفي. وفي الحال هَمَّ بالقيام فقام، وأراد أن يمشي، فمشى. أطاع كلمة الْمَسِيحِ فأعطاه اللهُ القدرة وبريء البرء التام.

وأنت بالمثل خاطئ ، ولا تستطيع أن تكفِّر عن تعدياتك السالفة، ولا تقدر أن تغيّر قلبك أو أن تقدِّس نفسك. ولكن قد وعدك اللهُ بأن يصنع هذا كله لأجلك في الْمَسِيحِ. أنت تؤمن بهذا وتعترف بخطاياك وتسلم ذاتك لله، وتريد أن تخدمه تعالى. فحالما تؤمن بالوعد وتصدق أن خطاياكَ قد غُفرت وقلبكَ تطهَّر، يحقق اللهُ لك البُرء، تماما كما أعطى الْمَسِيحُ مريضَ بيت حسدا القوة على المشي عندما آمن أنه قد شفي. فالأمر يصبح واقعا. وأنت قد شفيت، إن كنت قد آمنت.

فلا تنتظر حتى تشعر بأنك قد شفيت، بل قل أنا آمنت، وقد صار الشفاء، لا لأني شعرت به، بل لأن اللهَ قد وعد به.

قال يَسُوعُ: «كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ فَيَكُونَ لَكُمْ» مرقس ١١: ٢٤. على أن الشرط الوحيد لإتمام هذا الوعد هو أن تكون الطلبة بحسب مشيئة اللهِ. ولكن اللهَ يريد أن يطهّرك من الخطية وأن يتبنّاك أَيْضًا ابنًا له، وأن يقدِّرك على حياة القداسة. فاطلب

كل هــذه الـبَرَكَات مؤمنًـا بــأن تنالهــا، بــل اشكر اللهَ أنـك قـد نلتهـا. إنّـه مـن حقـك أن تسـلّم نفسـك للمسيح ليطهّـرك، فتقـف إذ ذاك أمـام الشريعـة الـتي تعدّيـت مناهيهـا غـير خَجِـلٍ وغـير مُـدان. لأن «لاَ شَيْءَ مِـنَ الدَّيْنُونَـةِ الآنَ عَـلَى الَّذِيـنَ هُـمْ فِي الْمَسِـيحِ يَسُـوعَ السَّـالِكِينَ لَيْـسَ حَسَـبَ الْجَسَـدِ بَـلْ حَسَـبَ الـرُّوحِ» روميــة ٨: ١.

ومـن الآن فصاعـدًا أنـت لست لذاتـك، لأنـك اشـتُريت بثمـن «لاَ بِأَشْيَاءَ تَفْنَى، بِفِضَّةٍ أَوْ ذَهَـبٍ ... بَـلْ بِـدَمٍ كَرِيـمٍ كَمَا مِـنْ حَمَـلٍ بِـلاَ عَيْـبٍ وَلاَ دَنَـسٍ، دَمِ الْمَسِـيحِ» ١بطـرس ١: ١٨ و ١٩. بإيمانـك بـاللهِ قـد وَلَّـد الـرُّوح الْقُـدُس حيـاة جديـدة في قلبـك، فـصرت طفـلاً في أسرة اللهِ الـذي يحبـك كمـا يحـب ابنـه يَسُـوعَ.

وإذ قـد سـلمت نفسـك ليَسُـوعَ، فـلا ترتـد عنـه ولا تبتعـد، بـل قـل في نفسـك كل يـوم، «إني للمسـيح، وقـد سـلمته ذاتي». واطلـب إليـه أن يمنحـك مـن روحـه ويحفظك بنعمتـه. فكمـا صرت أبنًـا له، بتسليمه نفسـك وإيمانـك بـه، فكذلـك تحيـا بـه، حسـب قـول الرسـول: «كَمَـا قَبِلْتُـمُ الْمَسِـيحَ يَسُـوعَ الـرَّبَّ اسْـلُكُوا فِيـهِ» كولـوسي ٢: ٦.

يشـعر البعـض بأنّهـم، قبـل أن يصـير لهـم الحــق في طلب البَرَكَـة يجـب أن يجتازوا امتحانًـا يُثبتـون فيـه أنهـم قـد أصلحـوا حياتَهـم. بيـد أنّ الحقيقـة هـي أنّ لهـم الحق في أن يطلبـوا البَرَكَـة الآن، بـل هـم، إن لـم ينالـوا نعمـة الْمَسِـيحِ، وإن لـم يأخـذوا مـن روحـه ليعـين ضعفاتهـم، لا يسـتطيعون أن يقاومـوا الـشرّ. زِد عـلى ذلـك أنّـه يجـب أن نـأتي إلى الْمَسِـيحِ كمـا نحـن خاطئـين عاجزيـن محتاجـين. فلنـأت بضعفاتنـا وجهالاتنـا ونجاسـاتنا، ولنَرتَـم عنـد قدميـه نادمـين، لأنـه مـن دواعـي فخـر الْمَسِـيحِ ومجـده، أن يحتضننـا بذراعـي محبتـه، ويضمّـد جروحَنـا وينقّـي قلوّبنـا.

إن الكثيريـن لا ينالـون الخـلاص لأنهـم لا يصدقـون أنّ عفـو الْمَسِـيحِ يشـملهم هـم شـخصيًّا، ولا يثقـون بـأنّ اللهَ يقصدهـم بالـذات في مواعيـده. بيـد أنّـه مـن حـقّ كل فـرد قـد آمـن بعفـو الْمَسِـيحِ أن يعـرف ويتأكـد أنّ جميـع خطايـاه قـد غُفـرت مجّانًـا. فـإن كنـت تشـكّ في أنّ اللهَ يعنيك بمواعيـده، انـزع عـن نفسِـك هـذا الشَّـكّ وآمـن بـأنّ مواعيـد اللهِ إنّمـا هـي لـكل مذنـب تائـب بالحـق، بـل إنّـه تعـالى قـد أعـدّ في الْمَسِـيحِ قـوة ونعمـة يقدمهمـا لـكل مؤمـن محتـاج بواسـطة الملائكـة الطائعـين أمرَه. وليـس مـن مذنـبٍ قـد بلغـت خطيّتَـه وإثميتـه حـدًّا لا يجـد معـه القـوّةَ والطهـارةَ والـبِرّ في الْمَسِـيحِ

الـذي مـات لأجلـه. فـإنّ الفـادي لفـي انتظـار الخاطـئ الأثيـم لـكي يـنزع هـو عنـه الثيـابَ القـذرةَ الملطخـة ويلبسـه ثـوب برّه الأبيـض. فقـد أمـرَ بحياتـه لا بموتـهِ.

إنّ اللهَ لا يعاملنـا كمـا يعامـل النـاس بعضُهـم بعضًـا، إذ إنَّ أفـكارَه أفـكار رحمـةٍ ومحبـةٍ وشـفقةٍ كمـا صرّح بذلـك قائـلاً: «لِيَـتْرُكِ الشِّرِّيـرُ طَرِيقَـهُ وَرَجُـلُ الإِثْـمِ أَفْـكَارَهُ وَلْيَتُـبْ إِلَى الـرَّبِّ فَيَرْحَمَـهُ وَإِلَى إِلَهِنَـا لأَنَّـهُ يُكْـثِرُ الْغُفْـرَانَ». و «قَـدْ مَحَـوْتُ كَغَيْـمٍ ذُنُوبَـكَ وَكَسَـحَابَةٍ خَطَايَـاكَ» إشـعياء ٥٥: ٧؛ ٤٤: ٢٢.

«لأَنِّي لاَ أُسَرُّ بِمَـوْتِ مَـنْ يَمُـوتُ يَقُـولُ السَّـيِّدُ الـرَّبُّ، فَارْجِعُـوا وَاحْيُـوا» حزقيـال ١٨: ٣٢. ولكـن الشَّـيطانَ واقـف لنـا بالمرصـاد ليسـلب نفوسـنا ثقتهـا بهـذه التأكيـدات الإلهيـة، ويُطفـي فينـا كلّ بارقـة أمـل، ويحجـز عنّـا كلَّ شـعاعٍ مـن النـور. فـلا تسـمح لـه بـأن يفـوز بـشيء ممـا يضمـره لـك. ولا تعطـه أُذنًـا صاغيـة، بـل قـل لـه «إنَّ يَسُـوعَ قـد مـات عـني لـكي أحيـا أنـا، فهـو إذن يحبّـني ولا يشـاء أن أمـوت، ولي أب رحيم في السَّـمَاء، ولـئن كنـت قـد أسـأت إلى محبتـه وبـذّرت بـإسراف بَرَكاتِـه»، فـإنّي «أَقُـومُ وَأَذْهَـبُ إِلَى أَبِي وَأَقُـولُ لَـهُ: يَـا أَبِي أَخْطَـأْتُ إِلَى السَّـمَاءِ وَقُدَّامَـكَ وَلَسْـتُ مُسْـتَحِقًّا بَعْـدُ أَنْ أُدْعَـى لَـكَ ابْنًـا. اِجْعَلْـنِي كَأَحَـدِ أَجْـرَاك»، لوقـا ١٥: ١٨ و

١٩. ويخبرنا المثل كيف تم استقبال الابن الضال: «وَإِذْ كَانَ لَمْ يَزَلْ بَعِيدًا رَآهُ أَبُوهُ فَتَحَنَّنَ وَرَكَضَ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ» لوقا ١٥: ٢٠.

إنّ مثل الابن الضال، وإن كان بالغًا في اللطف والرقة ليقصر عن وصف شفقة اللهِ الأبوية التي لا تعرف حدًّا. وقد قال على لسان إرميا: «مَحَبَّةً أَبَدِيَّةً أَحْبَبْتُكِ، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَدَمْتُ لَكِ الرَّحْمَةَ» إرميا ٣١: ٣. بينما الخاطيء لا يزال بعيدًا عن بيت الآب السَّمَاوي يبذر أمواله في بلاد بعيدة، يتّقد قلبُ الأب شوقًا إليه، وكل ما يتولّد في قلب الخاطئ من رغبة في الرجوع إلى اللهِ إنما هو من نتيجة نداءات الرُّوح الْقُدُس له وتوسلاته إليه ليرجع الى قلب أبيه المحب.

أَبَعْدَ هذه المواعيد الكتابية الغنية التي جعلها اللهُ بين يديك، تدع للشك مكانًا في نفسك؟ وهل تتصور أنّ اللهَ يُبدي صدودًا وجفاء لخاطئ تتوق نفسه إلى أن يترك خطاياه ويرجع إليه نادمًا تائبًا. تبًّا لكلّ فكرة كهذه، لأنه لا شيء أضر لنفسك من مثل هذه الأوهام. فإن الآب السَّمَاوي، وإن كان يبغض الخطية، إلا أنّه يحب الخاطئ. ولذلك بذل نفسه في شخص الْمَسِيحِ لكي يُخَلِّص كل مَن أراد الخلاص، ويمنحه السعادة الأبدية في ملكوت المجد. وهل من لغة تُعبِّر عن محبته أرق وأقوى من قوله: «هَلْ تَنْسَى الْمَرْأَةُ رَضِيعَهَا فَلاَ تَرْحَمَ ابْنَ بَطْنِهَا؟ حَتَّى هَؤُلاَءِ يَنْسِينَ وَأَنَا لاَ أَنْسَاكِ» إشعياء ٤٩: ١٥

فانتصب يا مَن عراك الشَّك والخوف، فإن يَسُوعَ حيّ ليشفع فيك. واشكر اللهَ الذي بذل ابنه الحبيب لأجلك، وتوسل إليه أن لا يكون موتُه عنك عبثًا. فإن الرّوح يدعوك اليوم مناشدًا إياك أن تأتي بكل قلبك إلى يَسُوعَ، وتطلب إليه أن يمنحك هباته وبَرَكَاتَه.

وإذ تقرأ المواعيد فاذكر أنها تعبّر عن رحمة وشفقة لا توصفان. فإنّ قلب تلك المحبة العجيبة ليحنو على الخاطئ ويحوطه بكل عوامل الرأفة والحنان. ونحن قد صار «فِيهِ لَنَا الْفِدَاءُ، بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَا» أفسس ١: ٧. ولم يبقَ عليك إلا أن تؤمن بأنّ اللهَ هو عونك وقوتك وهو يريد أن يستعيد صورته الأدبية في الإنسان. فكلما اقتربت منه بالاعتراف والتوبة، اقترب هو أَيْضًا منك بالرَّحمة والغفران.

الفصل السابع

مُتَجَدِّدونَ في الْمَسِيحِ

«إِذا إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ. الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ. هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا» ٢كورنثوس ٥: ١٧.

قد لا يستطيع شخص أن يعرف تمامًا الوقت الذي بدأ فيه أن يتجدد، وقد لا يستطيع أَيْضًا أن يحدد المكان أو الأحوال التي لابست عملية التجديد ولكن هذا لا يعني أنه غير متجدد. فقد قال الْمَسِيحُ لنيقوديموس، «اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا لَكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هَكَذَا كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ» يوحنا ٣: ٨. وكما أن الريح لا تُرى بالعين بل تُعرف بتأثيرها وقوتها، فكذلك عمل روح اللهِ في قلب الإنسان. فهذه القوة المجددة، التي لا يمكن أن تُرى بالعين البشرية، تُولّد في النَّفْس حياة روحية، وتجعل من الإنسان مخلوقًا جديدًا على صورة اللهِ. وفيما يكون عمل الروح في الداخل سرّيًّا خفيًّا، يكون تأثيره في الحياة الخارجية ظاهرًا جليًّا. وكل تجديد يتمّ في قلب الإنسان بفعل الرُّوح الْقُدُس، تتجلّى آثاره للعيان. وبينما لانستطيع أن نغيّر قلوبنا بأنفسنا أو نجعل حياتنا في توافق مع اللهِ، وبينما لا يمكننا الركون الى ذواتنا أو إلى أعمالنا الصالحة، إلا أن حياتنا ستعلن فيما إذا كانت نعمة اللهِ قد تغلغلت في قلوبنا. وسيظهر التغيير حتما في صفاتنا وعاداتنا ومساعينا. فلا بدّ من أن يكون فرق واضح بين ما كنا عليه، وما صرنا إليه. غير أن من المصادفات، صالحة كانت أَمْ طالحة، لا تكشف القناعَ عن حقيقة أخلاق الإنسان، وإنما يعلنها اتجاه حياته الدائم وأعماله وكلماته المعتادة.

نعم، قد يستطيع الإنسان أن يبدو للناس في مظهرٍ لائقٍ دون أن يكون متجددًا بنعمة اللهِ. وقد ينشيء حبّ النفوذ والرغبة

في إعجاب الغير نظامًا جميلاً في حياته. وقد يؤدي به الاعتداد بالذات إلى تجنّب الشرّ. «وقد يجود البخيل»، فكيف إذن، والحالة هذه، نستطيع أن نحكم في أننا قد تجدَّدنا أَمْ لا؟ وإلى أي جانب ننتمي؟

ولكن لمنَ القلب؟ وفي منَ نفكّر وعمّن نتحدث؟ وبمَن نتعلّق حبًّا واشتياقًا، ولأجل مَن نبذل أقصى الجهود؟ لأننا إن كنا للمسيح فبه نلهج وفيه نفكر واسمه نذكرُ وله نقف جميع مالنا، وإننا لنشتاقُ إذ ذاك إلى أن نكون مشابهين له، ونقتفي آثارَه، ونمتلىء من روحه، ونطلب رضاه في كل شيء.

فكلّ الذين يصيرون في الْمَسِيحِ خليقة جديدة يظهرون في حياتهم أثمار الروح التي هي، «مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ» غلاطية ٥: ٢٢ و ٢٣. فلا يعودون يسلكون حسبَ شهواتِهم السابقة، بل بإيمان ابن اللهِ يتبعون خطواتِه. ويحملون صفاتِه وسجاياه، ويطهرون أنفسهم كما هو طاهر، حتى لقد تراهم، فإذا هم يحبّون ما كانوا يكرهون، ويكرهون ما كانوا يحبّون، فالفاسق المنغمس في الملذات تراه وإذا هو قدّيس طاهر. والمتكبّر الفخور تراه فإذا هو متواضع شكور. ومدمنُ الخمرِ تراه فإذا هو قد طرح الشرَّ جانبًا وتخلى عن عادات العالم وطرقه. فالْمَسِيحي لا يسعى للتحلي بالزينة الخارجية، لكن بإنسان «الْقَلْبِ الْخَفِيَّ فِي الْعَدِيمَةِ الْفَسَادِ، زِينَةَ الرُّوحِ الْوَدِيعِ الْهَادِئِ، الَّذِي هُوَ قُدَّامَ اللهِ كَثِيرُ الثَّمَنِ» ١بطرس ٣: ٣ و ٤.

فليس من دليل على التوبة الصحيحة، إلا إذا شمل الحياة كلّها تغيير فعلي وإصلاح حقيقي. فاذا قام الخاطيء برد ما ارتهنه، وتعويض ما اسْتَلَبَه، والاعتراف بما اقترفه وارتكبه، وأظهر محبته لله، ولأخيه الإنسان، ليعلم أنه قد انتقل من الموت إلى الحياة.

وعندما نأتي إلى الْمَسِيحِ، كخطاة وأثمة، ونصبح مشاركين لنعمته الغافرة، تتفجر في قلوبنا ينابيع المحبة. فيصبح كل حمل خفيفًا، لأن النّير الذي يسمح به الْمَسِيحُ يسهل حمله. ويصير الواجب لذة، وتصبح التضحية غبطة ومسرة. ونرى الطريق الذي كان يبدو لنا مظلمًا مخيفًا فإذا هو قد أصبح مزدانًا بيَسُوعَ، شمس البرّ، ومغمورًا بأشعتها الجميلة.

يتجلّى في أتباع الْمَسِيحِ سمو صفاته وكمال سجاياه. لقد كانت مسرّة الْمَسِيحِ أنْ يفعل مشيئة اللهِ، ولذلك ملكت حياته المحبة لله والغيرة على مجده، بل زانت

المحبة جميع أعماله وحلّت في كل تصرفاته. وليست المحبة إلا من اللهِ. فلا يستطيع قلب الخاطئ أن ينشئها أو يبرزها، إنما هي تسود فقط في القلب الذي يملك فيه يَسُوعُ. «نَحْنُ نُحِبُّهُ لأَنَّهُ هُوَ أَحَبَّنَا أَوَّلاً» ايوحنا ٤: ١٩. والمحبة مبدأ العمل في كل متجدد بنعمة اللهِ، تلطف سجاياه، وتقمع أهواءه، وتملك براعته وتستأصل عداوته، وترقق عواطفه. فهذه المحبة، إن عززتها النَّفْس، تزين الحياة وتؤثر تأثيرًا جميلاً في كل من يراها.

يتعرض أولاد اللهِ، ولا سيما حديثو الإيمان منهم، لغلطتين يجب أن يكونوا على حذر منهما. أولهما، وقد تقدّم الكلام فيها، غلطة الاعتماد على جهودهم ظنًّا منهم أنهم يصيرون في وئام مع اللهِ بأعمالهم. والحقيقة هي أن الذي يطلب أن يتقدّس بحفظ ناموس اللهِ يطلب المستحيل. فالأعمال التي يقوم بها الإنسان بدون الْمَسِيحِ تتلوَّث بالأنانية والخطية، لأن التقديس إنما هو بالإيمان بنعمة الْمَسِيحِ وحدها.

وأما الغلطة الثانية فهي نقيضة الأولى، ولا تقل عنها خطرا. وهي زعم بعضهم أن الإيمان بالْمَسِيحِ قد حرّر المؤمن من واجب الطاعة لناموس اللهِ، وأنه ليس للأعمال شأن في الفداء لأن الإنسان يصير شريكًا في نعمة الْمَسِيحِ بالإيمان فقط.

ولكنّ الطاعة هنا ليست مجرّد اذعان، ظاهري، بل هي خدمة المحبّة. فإن ناموس اللهِ يُعَبّرُ عن طبيعة اللهِ ذاتها. وقد تجسّم في هذا الناموس مبدأ المحبة. ولذلك هو أساس حكم اللهِ في السَّمَاء وعلى الأرض. فإذا كانت قلوبنا قد تجددت على صورة اللهِ واستقرت المحبة الإلهيّة في النَّفْس، أفلا يتمثل ناموسه في حياتنا؟ ومتى ساد مبدأ المحبة في القلب وتجدد الإنسان حسب صورة خالقه فقد تم الوعد الذي جاء في الميثاق الجديد القائل: «أَجْعَلُ نَوَامِيسِي فِي قُلُوبِهِمْ وَأَكْتُبُهَا فِي أَذْهَانِهِمْ» عبرانيين ١٠: ١٦. وإذا كان الناموس مسطورًا على القلب أفلا ينعكس ذلك على الحياة ويشكّلها وفقًا لمتطلباته؟ فالطاعة المبنية على خدمة المحبّة والولاء، هي علامة التلمذة الحقيقية الفارقة. لذلك يقول الكِتَاب «فَإِنَّ هَذِهِ هِيَ مَحَبَّةُ اللهِ: أَنْ نَحْفَظَ وَصَايَاهُ.» ايوحنا ٥: ٣. «مَنْ قَالَ قَدْ عَرَفْتُهُ وَهُوَ لاَ يَحْفَظُ وَصَايَاهُ، فَهُوَ كَاذِبٌ وَلَيْسَ الْحَقُّ فِيهِ» ١يوحنا ٢: ٤. فالإيمان اذن بدلاً من أن يحرّر الإنسان من واجب الطاعة فإنه، أي الإيمان وحده، هو الذي يجعلنا شركاء في نعمة الْمَسِيحِ التي تقدرنا

على تقديم الطاعة الكاملة.

على أنّ الخلاص لا يصير حقًّا لنا بالطاعة، إنما الخلاص هبة مجانية نتقبله من اللهِ بالإيمان، وما الطاعة إلا ثمرة الإيمان. لذلك يقول الرسول: «وَتَعْلَمُونَ أَنَّ ذَاكَ أُظْهِرَ لِكَيْ يَرْفَعَ خَطَايَانَا، وَلَيْسَ فِيهِ خَطِيَّةٌ. كُلُّ مَنْ يَثْبُتُ فِيهِ لاَ يُخْطِئُ. كُلُّ مَنْ يُخْطِئُ لَمْ يُبْصِرْهُ وَلاَ عَرَفَهُ» ١يوحنا ٣: ٥ و ٦. فالطاعة إذن هي المحك الحقيقي. لأن الذي يثبت في الْمَسِيحِ وتملك المحبة في قلبه تكون ميوله وأعماله وأفكاره وأهدافه مطابقة لإرادة اللهِ المعلنة في وصايا شريعته المُقدّسة. «أَيُّهَا الأَوْلاَدُ، لاَ يُضِلَّكُمْ أَحَدٌ. مَنْ يَفْعَلُ الْبِرَّ فَهُوَ بَارٌّ، كَمَا أَنَّ ذَاكَ بَارٌّ» ١يوحنا ٣: ٧. وأما مقياس البرّ فهو ناموس اللهِ المقدّس الذي أنزله على جبل سيناء والمتمثِّل في الوصايا العشر.

إذًا، فالإيمان المزعوم الذي يحرّر الناس من التزامات الطاعة لناموس اللهِ، ليس هو في الحقيقة إِيمَانًا، بل تصلّفًا وتطاولاً. صحيح أنّ الرسول بولس يقول إننا «بِالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ» أفسس ٢: ٨. ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أنّ «الإِيمَانَ أَيْضًا، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَعْمَالٌ، مَيِّتٌ فِي ذَاتِهِ» يعقوب ٢: ١٧. ولقد أكد يَسُوعُ نفسه وجوب الطاعة للناموس إذ قال عن نفسه قبل مجيئه إلى هذه الأرض، «أَنْ أَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا إِلهِي سُرِرْتُ، وَشَرِيعَتُكَ فِي وَسَطِ أَحْشَائِي» مزمور ٤٠: ٨. وقال أَيْضًا قبل صعوده إلى السّماء: «أَنَا قَدْ حَفِظْتُ وَصَايَا أَبِي وَأَثْبُتُ فِي مَحَبَّتِهِ» يوحنا ١٥: ٨. وكذلك يقول الرُّوح الْقُدُس على لسان يوحنا: «وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّنَا قَدْ عَرَفْنَاهُ: إِنْ حَفِظْنَا وَصَايَاهُ. مَنْ قَالَ قَدْ عَرَفْتُهُ وَهُوَ لاَ يَحْفَظُ وَصَايَاهُ، فَهُوَ كَاذِبٌ وَلَيْسَ الْحَقُّ ... مَنْ قَالَ إِنَّهُ ثَابِتٌ فِيهِ، يَنْبَغِي أَنَّهُ كَمَا سَلَكَ ذَاكَ هَكَذَا يَسْلُكُ هُوَ أَيْضًا» ١يوحنا ٢: ٣ - ٦. وقوله على لسان الرسول بطرس: «فَإِنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا تَأَلَّمَ لأَجْلِنَا، تَارِكًا لَنَا مِثَالاً لِكَيْ تَتَّبِعُوا خُطُواتِهِ» ١بطرس ٢: ٢١.

يتبين من هذا أنّ البرّ الكامل للناموس الإلهي أو الطاعة الكاملة، لا تزال هي شرط التمتّع بالحياة الأبدية، كما كانت دائمًا منذ عهد أبوينا الأولين، وهما في جنة عدن قبل سقوطهما في الخطية. لأنه لو كان شرط آخر للحصول على الحياة الأبدية، دون الطاعة الكاملة لله، لظلّ باب الخطية مفتوح على الدوام تتدفق منه سيول البؤس والشقاء، مما يقضي على سعادة الكون بأسره.

لقد كان في مقدور آدم، قبل السقوط، أن يتحلى بصفات اَلْبِرِّ من خلال إطاعته لناموس اللهِ. ولكنّه عصى فسقط، وبخطيته

وُلدنا نحن بطبيعة ساقطة، ولا نستطيع أن نغيّر طبيعتنا فنصير أبرارًا، ولا يمكننا، ونحن نجسون، أن نؤدي الطاعة الكاملة لناموس مُقدّس. وليس لنا برّ ذاتي به نوفي مطاليب ناموس اللهِ. ولكن الْمَسِيحَ فتح لنا باب النجاة إذ قد عاش على الأرض فتعرَّض لكل ما نتعرض له نحن من تجارب الحياة وشدائدها، وانتصر. فقد عاش بلا خطية ثم مات لأجلنا، وهو مستعد لأن يحمل عنا خطايانا ويهبنا بِرَّه. فإذا أنت سلّمته نفسَك وقبلته فاديًا ومُخَلِّصًا لك حُسبت بارًّا كأنك لم تخطيء قط، إذ إنّ صفاته قد حُسبت لك فصارت صفاتك.

وفضلا عن ذلك، فإن الْمَسِيحَ يغيّر القلب ويحلّ فيه بالإيمان. فعليك أن تحتفظ بصِلتك بالْمَسِيحِ، بالإيمان، وتعمل على إخضاع إرادتك له إخضاعًا مستمرًا. وما دمت تفعل ذلك، فإنه يعمل فيك أن تريد وأن تعمل من أجل المسرة، لكي تستطيع أن تقول، «مَا أَحْيَاهُ الآنَ فِي الْجَسَدِ فَإِنَّمَا أَحْيَاهُ فِي الإِيمَانِ، إِيمَانِ ابْنِ اللهِ، الَّذِي أَحَبَّنِي وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِي» غلاطية ٢: ٢٠. ولذلك قال الْمَسِيحُ لتلاميذه، «لأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمُ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلْ رُوحُ أَبِيكُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ» متى ١٠: ٢٠. وإذ يكون الْمَسِيحُ عاملاً فيك، تستطيع أن تظهر روحه، وأن تعمل أعماله، أعمال البرّ الفضلى التي هي الطاعة المثلى.

وإذن، فليس لنا في أنفسنا ما يحملنا على التفاخر، أو يُسوِّغ لنا التعاظم لأنّ أساس رجائنا، إنّما هو بِرّ الْمَسِيحِ المحسوب لنا وما يعمله الروح فينا وبنا.

وإذ نتكلم عن الإيمان يجب أن يكون في فكرنا التمييز بين الإيمان الحقيقي ومجرّد التصديق. لأن الشَّيْطَانَ نفسه لا يستطيع أن ينكر وجود اللهِ، ولا أن يتجاهل قدرتَه أو يكذّب صدقَ أقواله. كما أثبت ذلك الرسول يعقوب في قوله، «الشَّيَاطِينُ يُؤْمِنُونَ وَيَقْشَعِرُّونَ» يعقوب ٢: ١٩. إلا أنّ إيمان الشياطين ليس إيمانًا للخلاص اذ ليس فيه خضوع لإرادة اللهِ. وأما الإيمان الذي يحدو الإنسان على تسليم قلبه وإرادته لله وتثبيت عواطفه فيه، والاتكال عليه، فهو الإيمان الصَّحيح، الإيمان العامل بالمحبة الذي يطهّر النَّفْس ويجدد في صاحبه صورة اللهِ حتى أنّ القلب، الذي في حالة عدم تجدده ليس خاضعًا لناموس اللهِ، لأنه أَيْضًا لا يستطيع، أصبح الآن يبتهج بالشريعة قائلاً مع المُرنِّم: «كَمْ أَحْبَبْتُ شَرِيعَتَكَ! الْيَوْمَ كُلَّهُ هِيَ لَهَجِي» مزمور ١١٩: ٩٧. وهكذا «يَتِمَّ حُكْمُ النَّامُوسِ فِينَا نَحْنُ السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ» رومية ٨: ١ و ٤.

وبين المؤمنين قوم يعرفون محبة الْمَسِيحِ الصفوح ويرغبون في أن يكونوا أولادًا لله، غير أنهم يشعرون بأن حياتهم مليئة بالنقائص والعيوب مما يحملهم على الارتياب من أنهم تجددوا بالرُّوح الْقُدُس. فلأمثال هؤلاء أقول، لماذا التخاذل؟ لأننا كثيرًا ما نلتزم بعد قبولنا الْمَسِيحَ أن نبادر إليه ونرتمي عند قدميه معترفين بدموع سخية بخطايانا وتقصيراتنا، ولكن علينا أن لا نيأس، لأنّ اللهَ، وإن كان العدو قد غلبنا، لا يرفضنا ولا يهملنا ولا يتركنا. فالْمَسِيحُ عن يمين الآب يشفع فينا. وقد قال يوحنا الحبيب في هذا، «يَا أَوْلاَدِي، أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ هَذَا لِكَيْ لاَ تُخْطِئُوا. وَإِنْ أَخْطَأَ أَحَدٌ فَلَنَا شَفِيعٌ عِنْدَ الآبِ، يَسُوعُ الْمَسِيحُ الْبَارّ» ١يوحنا ٢: ١. ولا تنسى أَيْضًا كلمات يَسُوعَ، «الآبَ نَفْسَهُ يُحِبُّكُمْ» يوحنا ١٦: ٢٧، وهو يريد أن يردّك إليه ويطبع على حياتك طهارته وقداسته. فإذا كنت تسلم نفسك له لا بد من أن يكمل العمل الصالح الذي ابتدأه فيك حتى يوم الْمَسِيحِ يَسُوعَ. فلنصِّل بأكثر لجاجة ولنؤمن إيمانًا راسخًا. وكلما شعرنا بضعفنا فلنزدد ثقة بقدرة الفادي ولنرتج اللهَ لأننا بعد نحمده خلاص وجهنا وإلهنا. مزمور ٤٣: ٥.

إننا، كلما دنونا من يَسُوعَ ازددنا شعورًا بما فينا من نقائص وعيوب، إذ نرى أنفسنا على حقيقتها في ضوء الكمال الإلهي. وما الشعور بالنقص إلا الدليل على أن خدع الشَّيْطانِ قد بدأت تفقد قوتها علينا، وأن الضمير قد بدأ يستيقظ من سباته ويبعث من موته، بفعل الرُّوح الْقُدُس.

ولن تتأصل في قلوبنا محبة يَسُوعَ، ما لم نتحقق من إثمنا ومعصيتنا وندرك خطأنا. ولن نعجب بكمال اللهِ وجماله، ما لم تتجدد قلوبنا بنعمته. فإن كنا لم نَرَ بعد نقصنا الروحي، ولم ندرك ضعفنا الأدبي، فما ذلك إلا الدليل البين على أننا لم نعرف الْمَسِيحَ بعد، ولم نَرَ محاسنَه ومزاياه.

فكلما قلّ تقديرنا لأنفسنا، ازداد تقديرنا لطهارة المُخلّص وجماله اللذين لا حد لهما. وإننا اذ ندرك خطأنا وإثميتنا، نلجأ إلى ذاك الذي يستطيع أن يعفو ويصفح. وإذ نشعر بقصورنا وعجزنا، فإنه يعلن ذاته بقوة. وكلما شعرنا بالحاجة إليه، وإلى كلمته، تجلّت لنا بأكثر وضوح، صفاته الجليلة. وانطبعت في قلوبنا صورته الجميلة.

الفصل الثامن

النُّمُوّ في الْمَسيحِ

يُسمّي الكِتاب المُقدَّس تغيير القلب — التغيير الذي به نصير أولاد اللهِ — ولادةً. ويُشبَّه أَيْضًا بنمو الزرع الجيد الذي بذره الفلاح في حقله، ويحض الذين تجددوا على أن ينموا «كأطفال مولودين الآن» إلى أن يبلغوا «قياس ملء الْمَسِيحِ» ١بطرس ٢: ٢، أفسس ٤: ١٣، وأن يثبتوا ويثمروا مثل الزرع لأنهم «أَشْجَار الْبِرِّ غَرْسَ الرَّبِّ لِلتَّمْجِيدِ» إشعياء ٦١: ٣. فمن هذه الأمثلة المستمدة من الحياة الطبيعية نستطيع أن نقف على بعض أسرار الحياة الروحية.

وليس في إمكان الإنسان مهما أحرز من الحكمة والمهارة أن ينشئ حياة في أصغر شيء في الطبيعة، لأن مصدر الحياة هو اللهُ، وبه وحده يحيا كل حي. وكذلك أَيْضًا في العالم الروحي، لا تتولد حياة روحية في قلب الإنسان إلا بفعل اللهِ. وإن لم يولد الإنسان «من فوق» يوحنا ٣: ٣ لا يستطيع أن يكون شريكًا في الحياة التي جاء يَسُوعُ ليهبها للعالم.

وشأن الحياة هو شأن النّمو بالذات، فالذي يجعل البرعم زهرًا ويحول الزهر أثمارًا هو اللهُ الذي بقوته يجعل البذر «أَوَّلًا نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلًا، ثُمَّ قَمْحًا مَلآنَ فِي السُّنْبُلِ» مرقس ٤: ٢٨. وقال هوشع النَّبِيّ عن شعب الله إنّهم يزهرون كالسوسن و «يُحْيُونَ حِنْطَةً وَيُزْهِرُونَ كَجَفْنَةٍ» هوشع ١٤: ٥ و ٧. ويأمرنا يَسُوعُ أن نتأمل «الزَّنَابِقَ كَيْفَ تَنْمُو» لوقا ١٢: ٢٧. فإن النبات والزهور لا تنمو باهتمامها، ولا تزهو بعنائها وكدها، ولكنّها تنمو إذ تتقبل من اللهِ ما أعده لنموها. والطفل لا يستطيع بقوته واجتهاده أن يزيد على قامته ذراعًا. وكذلك في الحياة الروحية، لا تستطيع أنت أن تنمو باجتهادك ومجهودك، إن الطفل والنبات ينميان كلاهما بأخذهما من المحيط ما يخدم حياتَهما — كالهواء النقي

وضوء الشَّمْس والطعام. فكهبات الطبيعة تلك بالنسبة للحيوان والنبات، هكذا هو الْمَسِيحُ للواثقين فيه. فهو «نورهم الأبدي» «شَمْسٌ وَمِجَنٌّ» إشعياء ٦٠: ١٩، مزمور ٨٤: ١١- فإنه «لإِسْرَائِيلَ كَالنَّدَى» . «يَنْزِلُ مِثْلَ الْمَطَرِ عَلَى الْجُزَازِ، وَمِثْلَ الْغُيُوثِ الذَّارِفَةِ عَلَى الأَرْضِ» هوشع ١٤: ٥، مزمور ٧٢: ٦. وهو أَيْضًا «الماء الحي» و «خبز اللهِ» «النازل من السَّماء الواهب حياة للعالم» يوحنا ٦: ٣٣.

فاللهُ إذ أعطى ابنهُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِإحاط العالم بجو من النعمة كما يحيط الهواء الكرة الارضية. وكل من يختار أن يستنشق هواء هذا الجو المنعش يحيا وينمو إلى قياس قامة ملء الْمَسِيحِ.

وكما تتجه الزهور نحو الشَّمْس لتستمدّ من أشعتها ما يجملها ويكمل تنسيقها، هكذا يجب أن نتجه صوب شمس برّ الْمَسِيحِ الذي يضيء علينا بنوره من السَّمَاء فننمو في حياتنا الروحية حتى نصير مشابهين لصورته.

وهذا عين ما علَّم به يَسُوعُ في قوله: «اُثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ. كَمَا أَنَّ الْغُصْنَ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ بِثَمَرٍ مِنْ ذَاتِهِ إِنْ لَمْ يَثْبُتْ فِي الْكَرْمَةِ كَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيْضًا إِنْ لَمْ تَثْبُتُوا فِيَّ ... الَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ ... هَذَا يَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ لأَنَّكُمْ بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا» يوحنا ١٥: ٤ و ٥. فحاجة الغصن إلى أصل الشجرة لكي ينمو ويثمر هي حاجتك إلى الْمَسِيحِ لكي تحيا حياة البرّ، إذ لا حياة لك إذا انفصلت عنه، ولا قوة لك على مقاومة التجارب أو النموّ في النعمة والقداسة. ولكن إذا ثبتَّ فيه تكون مثل شجرة مغروسة على مجاري المياه، أوراقها لا تذبل ولا تكون عقيمة، بل تزهو وتثمر دائمًا.

غير أنّ الكثيرين يتصورون أنّ عليهم وحدهم أن يقوموا بقسط وافر من عمل النمو. فقد قبلوا من الْمَسِيحِ غفران الخطية مجانًا، ولذلك يحسبون أن حاجتهم إنما هي أن يعيشوا باستقامة وكمال بجهودهم الذاتية. وأمّا كل محاولة كهذه فمصيرها إلى الإخفاق والفشل، كما قال الْمَسِيحُ «بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا» يوحنا ١٥: ٤ و ٥. ففرحنا والحياة الخالية من الاثرة ونمونا في النعمة يتوقف كله على اتحادنا بيَسُوعَ. ولا يتسنى لنا أن ننمو في النعمة إلا بمحادثتنا يَسُوعَ كل ساعة والثبوت فيه كل دقيقة. فالْمَسِيحية هي الْمَسِيحُ أولاً وآخرًا ودائمًا وأبدًا. فالْمَسِيحُ هو رئيس إيماننا ومكمله إذ يجب أن يكون معنا في أول الطريق وفي نهايتها، بل في كل خطوة منها، وإلا فنصيبنا الفشل. وقد قال داود في ذلك: «جَعَلْتُ الرَّبَّ أَمَامِي فِي كُلِّ حِينٍ، لأَنَّهُ عَنْ يَمِينِي فَلاَ أَتَزَعْزَعُ»، مزمور ١٦: ٨.

أتسـأل، «كيـف أثبـت في الْمَسِـيحِ؟» إنـك تثبـت فيـه بالكيفيـة نفسـها الـتي بهـا قبلتـه أولاً. وهـاك مـا كتبـه الرسـول بولـس في هـذا المعـنى، «كَمَـا قَبِلْتُـمُ الْمَسِـيحَ يَسُـوعَ الـرَّبَّ اسْـلُكُوا فِيـهِ» كولـوسي ٢: ٦. «أَمَّـا الْبَـارُّ فَبِالإِيمَـانِ يَحْيَـا» عبرانيـين ١٠: ٣٨. فقـد سـلمت نفسـك تسـليمًا تامًّـا لخدمـة اللهِ وطاعتـه، وقبلـت يَسُـوعَ مُخلِّصًـا لـك. لـم يكـن في مقـدورك أن تكفِّـر عـن خطايـاك ولا أن تغـيّر قلبـك، ولكنـك حـين سـلمته تعـالى نفسَـك آمنـت بأنـه أنعـم عليـك بهـذا كلـه في الْمَسِـيحِ. فبالإيمـان إذن صرت للمسـيح، وبالإيمـان يتسـنّى لـك أن تثبـت فيـه. إنَّـه لأخـذ وعطـاء، أنـت تعطيـه الـكل: قلبـك وإرادتـك وخدمتـك، وتأخـذ منـه الـكل: مـلء البَرَكَاتِ وحلـول الْمَسِـيحِ في قلبـك ليكـون لـك قـوةً وبـرًّا وعونًـا أبديًـا، فيهبـك القـدرة عـلى الطاعـة الكاملـة.

فبكِّـر إلى اللهِ في الصـباح، وسـلم لـه نفسـك جديـدًا، ولتكـن صـلاتك إليـه: «يـا رب إني لـك بجملـتي، واضـع كل تدبـيراتي لهـذا النهـار في يديـك لتسـتخدمني كيفمـا تشـاء. كـن معـي، ولتكـن أعمـالي اليـوم أعمالـك». إن هـذا لفـرض عليـك كل يـوم أن تخصـص نفسـك لله كل صبـاح لتكـون لـه طـول النهـار. وسـلّمه كل تدبيراتِـك لتنفيذهـا أو لإبطالهـا كمـا تشـاء عنايتـه. وهكـذا تكـون مسـلّمًا حياتـك لله ليصوغهـا ويصبهـا في قالـب حيـاة يَسُـوعَ فتصـير مثلـه.

الحيـاة في الْمَسِـيحِ هـي حيـاة الراحـة، وقـد تكـون خاليـة مـن فـرط الشـعور بالفـرح. ولكـن يجـب أن يملأهـا السـلام الدائـم والثقة الثابتـة إذ أنّ رجـاءَك ليـس في ذاتـك بـل في الْمَسِـيحِ الـذي يبـدّل ضعفـك بالقـوة ويهبـك عـوض جهلـك وعجـزك الحكمـةَ والبـأسَ. لا تنظـر إلى نفسـك ولا تركّـز تفكـيرك في ذاتـك بـل تطلّـع إلى الْمَسِـيحِ، وتأمّـل محبتَـه وجمـال صفاتـه وكمالهـا، وتفكـر في إنـكاره لذاتـه واتضاعـه وفي طهارتـه وقداسـته وعطفـه الـذي لا يبـارى — تلـك هـي المواضيـع الـتي ينبغـي أن تتأمـل فيهـا النَّفْـس. فبمحبتـك لـه وتمثلـك بـه واعتمـادك الـكلي عليـه تتغـير الى صورتـه.

قـال الْمَسِـيحُ: «اثبتـوا فيَّ». ومعـنى الثبـوت هـو الراحـة والطمأنينـة والاسـتقرار. ثـم دعانـا قائـلا: «تَعَالَـوْا إِلَيَّ ... وَأَنَـا أُرِيحُكُـمْ» متـى ١١: ٢٨. وكلمـات المرنـم تعـبر عـن الفكـرة ذاتهـا: «انْتَظِـرِ الـرَّبَّ وَاصْـبِرْ لَـهُ» مزمـور ٣٧: ٧. ويؤكـد إشـعياء إنّـه «بِالرُّجُـوعِ وَالسُّـكُونِ تَخْلُصُـونَ. بِالْهُـدُوءِ وَالطُّمَأْنِينَـةِ تَكُـونُ قُوَّتُكُمْ» إشـعياء ٣٠: ١٥. عـلى أنّ هـذه الراحـة لا تعـني التـواني والكسـل، لأنّ المُخَلِّـصَ في دعوتـه قـرن

الوعـد بالدعـوة إلى العمـل اذ قـال: «اِحْمِلُـوا نِـيرِي عَلَيْكُـمْ ... فَتَجِـدُوا رَاحَـةً لِنُفُوسِـكُم» مـتى ١١: ٢٩. فبقـدر مـا يسـتريح الإنسـان في الْمَسِيحِ يكـون جدُّه ونشاطُه في العمـل لأجلِه.

لكـن إذا انصـبَّ اهتمامنـا عـلى ذواتنـا، فـلا بـد مـن أن نتحـول عـن مصـدر حياتنـا وقوتنـا يَسُـوعُ، فيبـذل الشَّـيْطانُ إذ ذاك جهـدًا جهيـدًا مسـتمرًا ليبقـى نظرنـا منصرفًـا عـن المخلّـص فيمنـع اتحادنـا بـه ومحادثتنـا إيـاه، ويشـغلنا بملـذات العالـم وهمـوم الحيـاة وارتباكاتهـا وأحزانهـا وأخطـاء الغـير، وبأخطائنـا نحـن ونقائصنـا. وهكـذا يسـعى إلى أن يلهينـا عـن الْمَسِيحِ. فلنتنبـه لئـلا يخدعنـا بمكائـده، لأنـه كثـيرًا مـا ينجـح في تحويـل ذوي الضمائـر الحيـة والرغبـة الصادقـة في العيـش للمسـيح، إلى التأمـل في غلطاتهـم وضعفاتهـم أمـلاً منـه في فصلهـم عـن يَسُـوعَ وإحـراز الغلبـة النهائيـة. فـلا تهتـم لنفسـك ولا تستسـلم للقلـق والخـوف مـن جهـة خلاصـك، لأن هـذا كلـه مـن شـأنه أن يحولـك عـن مصـدر قوتـك، بـل سـلّم نفسـك لله واتـكل عليـه. وليكـن حديثـك عـن يَسُـوعَ وتفكـيرك فيـه إلى أنْ يغمـرك وتنـسى نفسـك. اطـرح عنـك كل شـك وابعـد عنـك كل خـوف وقـل مـع الرسـول بولـس: «أَحْيَـا لاَ أَنَـا بَـلِ الْمَسِـيحُ يَحْيَـا فِيَّ. فَمَـا أَحْيَـاهُ الآنَ فِي الْجَسَـدِ فَإِنَّمَـا أَحْيَـاهُ فِي الإِيمَـانِ، إِيمَـانِ ابْـنِ اللهِ، الَّـذِي أَحَبَّـنِي وَأَسْـلَمَ نَفْسَـهُ لأَجْـلِي» غلاطيـة ٢: ٢٠. تـوكل عـلى اللهِ فإنَّـه قـادر عـلى أن يحفـظ وديعتـك فـإن فوَّضـت أمـرك إليـه يعظـم انتصـارك بالـذي أحبـك.

لقـد ربـط الْمَسِـيحُ البشريـة بنفسـه، باتخـاذه الصـورة الإنسـانية، بربـاط حـبّي لا تنفصـم عـراه أبـدًا،إلاّ باختيـار الإنسـان نفسـه. لذلـك تجـد الشَّـيْطانَ دؤوبًـا في إغرائنـا بشـتى المغريـات لعلـه يحملنـا عـلى قطـع هـذه الرابطـة باختيارنـا والانفصـال عـن الْمَسِـيحِ برغبتنـا. فمـن ثـمّ يجـب أن نسـهر ونجاهـد ونصـلّي لكيـلا يسـتغوينا غـاوٍ عـلى أن نختـار سـيّدًا آخـر — فلنـا دائمـا مـلء الحريـة أن نختـار لأنفسـنا مـا يحلـو لنـا — فطالمـا كانـت أعيننـا مثبتـة عـلى الْمَسِـيحِ فإنـه سـيحفظنا، فمـا دمنـا نلتفـت إليـه نحـن آمنـون، لا يسـتطيع أحـد أن يخطفنـا مـن يـده. وبالنظـر إليـه باسـتمرار «نَتَغَيَّرُ إِلَى تِلْـكَ الصُّـورَةِ عَيْنِهَـا، مِـنْ مَجْـدٍ إِلَى مَجْـدٍ، كَمَـا مِـنَ الـرَّبِّ الـرُّوحِ» ٢كورنثـوس ٣: ١٨.

أجـل، بهـذه الوسـيلة اسـتطاع التلاميـذ الأولـون أن يتشـبهوا بمخلِّصهـم العزيـز. فهـم إذ سـمعوا كلماتـه شـعروا بحاجتهـم إليـه وإذ طلبـوه وجـدوه فتبعـوه. ورافقـوه أثنـاء جلوسـه إلى المائـدة في البيـت، ولازمـوه في المخـدع

وصحبوه إلى الحقول، وكانوا معه كالتلميذ مع المعلِّم يتلقن منه دروسًا يومية في قداسة الحق. ونظروا إليه كما ينظر العبد إلى سيده لكي يتعلموا واجبهم، ومع ذلك كانوا أناسًا «تحت الآلام مثلنا»، يعقوب ٥: ١٧، يحاربون الخطية كما نحاربها نحن، ويحتاجون إلى نعمة ربهم لكي يحيوا حياة مُقدَّسة.

فحتى يوحنا ذلك التلميذ المحبوب الذي بانت عليه صورة المُخلِّص أكمل بيان، لم تكن سجاياه السامية فطرية. فهو لم يكن فقط مدّعيًا العظمة وطموحًا إلى الكرامة، بل كان أَيْضًا متهوّرًا شديد الغيظ والغضب إذا أصابه أذى. ولكنه إذ تجلّت له صفات ذلك الإنسان الإلهي، أدرك عجزه، فقاده الإدراك إلى الإتضاع. إنّ ما رآه يوحنا في حياة ابن اللهِ اليومية من القوة والصبر، من القدرة والرقة، من الجلالة والوداعة، ملأ نفسه بالإعجاب والمحبّة. فارتكزت عواطفه في الْمَسِيحِ، وتقوَّت يومًا فيومًا إلى أن نسي نفسه واستغرق في حبّ سيده العظيم. فسلّم طبيعته الحادة إليه ليصبّها في قالبه، وليخلق فيه بالرُّوح الْقُدُس قلبًا جديدًا، وليغيّر بمحبتِه صفاتِه تغييرًا كاملاً شاملاً. إن هذه النتائج تلازم حتمًا كل اتحاد بالْمَسِيحِ. فمتى حلّ الْمَسِيحُ في القلب تتغير الطبيعة من أصلها، لأن روح الْمَسِيحِ يلَيِّن القلب ومحبّته تخضع النفس، فتسمو الأفكار إلى السَّمَاء وتعلو الرغائب إلى اللهِ.

صعد الْمَسِيحُ إلى السَّمَاء ولكنّ تابعيه ما فتئوا يشعرون بحضوره معهم حضورًا شخصيًّا، يشملهم بمحبته ويُرشدهم بنوره. فبعد أن ذهب عنهم مُخَلِّصهُم الذي سار معهم وتحدّث إليهم وصلى معهم وأحيا فيهم الرجاء وعزّى قلوبهم، نعم، بعد أن ذهب عنهم وعلى شفتيه رسالة السلام، رجع إليهم من سحابة الملائكة صدى وعدِه، «وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ» متى ٢٨: ٢٠. صعد يَسُوعُ إلى السَّمَاء وهو بالهيئة البشرية. وتيقّن التلاميذ أنه أمام عرش اللهِ صديقُهم ومخلِّصهُم. فلم يطرأ على عواطفه تغيير بل لم يزل واحدًا من البشرية المتألمة يقدّم أمام الآب استحقاقَ دمه وجروحَ يديه ورجليه تذكارًا للثمن الذي دفعه لأجل مفديه. وعرفوا أنّه إنما عاد إلى السَّمَاء ليعدّ لهم منازلَ، وأنه سيأتي أَيْضًا ويأخذهم ليكونوا معه إلى الأبد.

حين اجتمعوا معًا بعد صعوده، كان شوقهُم عظيمًا إلى الصَّلاة باسمه. كانوا يجثون بكل خشوع ويرددون ذلك الوعد القائل: «إِنَّ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ مِنَ الآبِ بِاسْمِي يُعْطِيكُمْ. إِلَى الآنَ لَمْ تَطْلُبُوا شَيْئًا بِاسْمِي.

اُطْلُبُوا تَأْخُذُوا لِيَكُونَ فَرَحُكُمْ كَامِلا» يوحنا ١٦: ٢٣ و ٢٤. وما انفكّوا يرفعون يد الإيمان مرددين هذه الحجة القوية بقولهم إنّ الْمَسِيحَ «الَّذِي مَاتَ بَلْ بِالْحَرِيِّ قَامَ أَيْضًا الَّذِي هُوَ أَيْضًا عَنْ يَمِينِ اللهِ الَّذِي أَيْضًا يَشْفَعُ فِينَا» رومية ٨: ٣٤، حتى حلّ يوم الخمسين. فوافاهم المعزى الذي قال عنه الْمَسِيحُ إنه «يكون فيكم» يوحنا ١٤: ١٧. وواصل حديثه لهم مؤكدًا: «إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي وَلَكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُ» يوحنا ١٦: ٧. ومنذ ذلك الحين أصبح الْمَسِيحُ يحلّ في قلوب المؤمنين من خلال الرُّوح الْقُدُس حلولاً دائمًا، بل أصبح أقرب منهم وأوثق صلة بهم مما كان في أيام حضوره الشخصي معهم. وصارت محبته ونعمته وقوته أكثر تجليًّا في حياة أولاده، حتى أنّ كل من رآهم «تعجّب وتأكد أنهم كانوا من أتباع يَسُوعَ» أعمال ٤: ١٣.

ما كانه الْمَسِيحُ لتلاميذه الأولين، هذا يريد أن يكونه للمؤمنين به في هذه الأيام. ويتضح ذلك من صلاته التي صلاها قائلاً: «وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هَؤُلاَءِ فَقَطْ بَلْ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكَلاَمِهِمْ» يوحنا ١٧: ٢٠.

وقد صلى لأجلنا وابتهل إلى اللهِ لكي نكون واحدا، كما أنه هو والآب واحد. فقد قال المُخَلِّص عن نفسه: «لاَ يَقْدِرُ الاِبْنُ أَنْ يَعْمَلَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا» يوحنا ٥: ١٩. «الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ» يوحنا ١٤: ١٠. فإذا كان الْمَسِيحُ حالاً في قلوبنا، لا بدّ من أن يعمل فينا لكي نريد و نعمل لأجل المسرة، فيلبي ٢: ١٣. فنعمل كما عمل هو ويتجلّى فينا الروح الذي تجلى فيه. وهكذا إذ نحبه ونثبت فيه «نَنْمُو فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَى ذَاكَ الَّذِي هُوَ الرَّأْسُ: الْمَسِيحُ» أفسس ٤: ١٥.

الفصل التاسع

العمل والحياة

إنّ اللهَ لمصدر الحياة والنور والسّعادة للعالمين، تنبثق مِنّه البَرَكَات لجميع مخلوقاته كما تنبعث من الشَّمْس أشعتها المنعشة وكما تنفجر من العين مياهها الحية. وعندما تملأ حياة اللهِ قلب الإنسان تفيض منه حاملة المحبة والبَرَكَة للآخرين أَيْضًا.

اغتّبط الْمَسِيحُ أن يفدي الإنسانَ الهالك وتهلل أن يرفعه إلى اللهِ، ولم يحسب حياته ثمينة عنده لإنجاز هذا العمل، بل بذلها «واحْتَمَلَ الصَّلِيبَ مُسْتَهِينًا بِالْخِزْيِ» عبرانيين ١٢: ٢. وهكذا الملائكة أَيْضًا، فإنهم يسعون دائما في إسعاد الآخرين. وفي عملهم هذا يجدون لذة وسرورًا. فالخدمة التي يحسبها كل محب لذاته بالعمل المهين له، خدمة التعساء الذين هم دونه أخلاقًا ومقامًا، إنما هي الخدمة التي يقوم بها ملائكة اللهِ الأطهار. إن روح الْمَسِيحِ المُنكرة لذاتها في أعمال المحبة للغير هي الروح التي تسود السّماء وهي جوهر سعادتها. وستتصف أعمال أتباع الْمَسِيحِ بالروح ذاتها.

متى حلّت محبة الْمَسِيحِ في القلب تكون فيه كالمسك الذي لا تخفى رائحته. فتأثيره المُقَدَّس سيشعر به كل مَن نحتك بهم. ومتى ساد روح الْمَسِيحِ في القلب يكون فيه كالعين في القفر تفيض مياهها لتنعش المعيي وتولّد فيه الشوق إلى الاستقاء من ينبوع الحياة الأبدية.

مِن مظاهر المحبة لِيَسُوعَ أن يسعى المُحب في النسج على منواله فيعمل عمله في إسعاد الناس ومن خصائصها أن تبدي العطف والشفقة والمؤاساة لكل مَن تشمله العناية الإلهية الأبوية.

لم يعش المُخلِّص على الأرض عيشة الاسترخاء والراحة. ولم ينهمك في خدمة نفسه، بل كانت حياته جهادًا دائمًا ونضالاً

دائبًا لخلاص المنكوبين الهالكين. ولم يعرف من المذود إلى جلجثة إلاّ التضحية وإنكار النَّفْس، فلم يطلب يوما العفو من واجب مضنٍ، ولم يحاول التخلّص من مشقاتِ السَّفر، ولم يهرب من عمل شاق، إذ إنّه «لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ» متى ٢٠: ٢٨. فالخدمة كانت غاية حياته العظمى والوحيدة. وما عداها كان ثانويًّا ومما يستخدم في سبيل بلوغ الغاية المنشودة. ولم يكن من شيء ليشبع نفسه ويروي ظمأه كعمل مشيئة الآب، حتى إنَّ حياته خلت من الأثرة ومحبة الذات خلوًا تامًا مطلقًا.

كل مَن يقبل نعمة الْمَسِيحِ فمثْلُه يكون على استعداد للقيام بأيةِ تضحيةٍ حتى يتسنى لجميع الذين مات عنهم يَسُوعُ أن يشتركوا في قبول الهبة السَّمَاوية. هو يسعى أَيْضًا إلى جعل العالم مكانًا أفضل للعيش فيه. فمثل هذه النمو الأكيد هو الثمرة الطيبة التي يأتي بها المتجدد الحقيقي. وهو ما أن يُقبل إلى الْمَسِيحِ حتى تتولد في نفسه الرغبة في المناداة بالصديق الحميم الذي وجده في شخصه الكريم. وفي إعلان الحق الذي خلَّصه وقدَّسه والذي لا يمكن إخفاؤه في قلبه. لأن الذي قد لبس بِرّ الْمَسِيحِ وامتلأ قلبُه من فرح الروح لا يستطيع السكوت عما اختبره بعد أن ذاق وعرف «مَا أَطْيَبَ الرَّبَّ» مزمور ٣٤: ٨. وكما فعل فيلبس الذي إذ وجد الْمَسِيحَ ذهب توًّا وفتش عن نثنائيل ودعاه قائلاً: «تعال وانظر» يوحنا ١: ٤٦، كذلك يحاول كل متجدد أن يدعو الآخرين إلى حضرته ويعرض عليهم فضائل الْمَسِيحِ وأن يعرِّفهم بغنى العالم غير المنظور. وهو في ذلك يشتاق اشتياقًا عظيمًا إلى أن يرى الجميع فيه «حَمَلَ اللَّهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ» يوحنا ١: ٢٩.

لا شكّ في أن كلّ مسعى نبذله لإسعاد الآخرين يعود علينا بالبَرَكَات المضاعفة حسب قصد اللهِ من إشراك الإنسان معه في إنجاز عمل الفداء. وقد وهب تعالى للناس أن يصيروا شركاء الطبيعة الإلهية وأن يعملوا، هم بدورهم، على إشراك بني جنسهم في هذه البَرَكَة. إنّ هذا لأسمى شرف وأعظم فرح يستطيع اللهُ القدير أن يجود بهما على البشر. فالذين يشاركون اللهَ في أعمال المحبة هم إليه أقرب المقربين.

كان من الممكن أن يسندَ اللهُ الكرازةَ بالإنجيل إلى الملائكة السَّمَاوية وأن يكل إليهم أمر توزيع بَرَكَات المحبة، أو أن يستخدمَ وسيلة أخرى من الوسائل

المتوافرة لديه لإنجاز مقاصده. ولكنّه تعالى، اختارهم أن يكونوا هم العاملين معه ومع الْمَسِيحِ والملائكة ليكون لهم نصيب وافر من البَرَكَات والأفراح والرفعة الروحية التي تنجم عن هذه الخدمة الجليلة.

ومن بَرَكَات الشركة في آلام الْمَسِيحِ أنها تولّد في القلب عطفًا مع الْمَسِيحِ، فالتضحية في الخدمة لخير الآخرين تقوّي الإنسان على الجود والإحسان وتوثّق صلته مع فادي الأنام الذي «افْتَقَرَ وَهُوَ غَنِيٌّ، لِكَيْ تَسْتَغْنُوا أَنْتُمْ بِفَقْرِهِ» ٢ كورنثوس ٨: ٩. وما لم نتمم قصد اللهِ في خلقنا لا تكون الحياة بَرَكَةً لنا.

إنْ خصصت نفسَك لعمل كل ما يريده الْمَسِيحُ من تلاميذه، وسعيت إلى ربح النفوس الهالكة، لا بدّ من أن تشعر بحاجة إلى اختبارٍ أنجع ومعرفةٍ أوسع في الأمور السّماوية، لأنك تجوع وتعطش إلى البرّ وتتوسل إلى اللهِ أن يقوي إيمانك ويسقيك جرعات أغزر من ينبوع الخلاص. وأما المقاومة والصعاب التي تلاقيها، فإنها تقودك إلى درس كلمة اللهِ وإلى المداومة على الصَّلاة، فتنمو في نعمة الْمَسِيحِ ومعرفته وتسعد باختبارات ثمينة غنية.

إنّ التضحية في العمل لأجل الغير، التضحيةَ الخالية من الأَثَرَة، لتُكسب الأخلاق عمقًا وثباتًا وجمالاً مسيحيًّا. وتملأ القائم بها سلامًا وسعادة، وترفع الأماني وتطهرها ولا تترك مجالا للتراخي والأنانية. إن من شأن الفضائل الْمَسِيحية أن تنمي قوى ممارسِها للعمل من أجل الرَّب، وتمنحه بصيرة ثاقبة وإيمانًا وطيدًا متزايدًا وقدرة مقتدرة في الصَّلاة. فالرُّوح الْقُدُس، إذ يعزف على أوتار النَّفْس يُخرج منها نغمًا يتجاوب مع النغمة الإلهية. وأولئك الذين يقفون حياتَهم على السعي المضحي إلى نفع الآخرين، إنّما هم في الواقع يعملون على خلاص أنفسهم.

على أنّ الطريقة المثلى للنمو في النعمة هي أن نشتغل بإخلاص في العمل المفروض علينا، وأن نبذل قصارى جهدنا لمساعدة مَن هم في حاجة إلى معونتنا. فإنما تتزايد قوتنا، بالمران والعمل، لأن النشاط هو مِن مستلزمات الحياة وضروراتها. إن أولئك الذين يسعون إلى المحافظة على الحياة الْمَسِيحية بقبولهم البَرَكَات التي تأتيهم عن طريق وسائط النعمة، دون أن يعملوا شيئًا لأجل الْمَسِيحِ، مثلهم كمثل من يحاول أن يأكل دون أن يشتغل أو يعمل. مثل هذا التصرف ينتج عنه دائمًا الانحطاط والتدهور في كل من العالم الروحي والطبيعي، لأن الإنسان الذي يرفض أن يستخدم أعضاءه لا بد من

أن يفقد القدرة على استعمالها. والْمَسِيحي الذي لا يستخدم القوى المعطاة له مِن اللهِ لا يتوقف فقط عن النموّ في الْمَسِيحِ، بل أَيْضًا يفقد القوة التي كانت له.

وقد جعل اللهُ كنيسة الْمَسِيحِ أداة لتخليص البشر، ووكل إليها مهمةَ تبليغ الإنجيل في كل أنحاء العالم. فهذه المسؤولية ملقاة على عاتق الْمَسِيحيين أجمعين، ويتعيّن على كل إنسان أن يعمل على تحقيق هذه المهمة بحسب ما تيسر له من الفرص والمواهب. إن المحبة التي أعلنها لنا الْمَسِيحُ، تجعلنا مديونين لكل الذين لم يعرفوا المُخَلِّصَ بعد، إذ إن اللهَ قد وهبنا نورًا، لا لكي نحتفظ به لأنفسنا، بل لنضيء به على الآخرين.

فلو أنّ اتباع الْمَسِيحِ كانوا متنبهين لواجبهم وحريصين على آداء مهمتهم، لكان الذين يقومون اليوم بنشر رسالة الإنجيل في البلاد الوثنية يعُدّون بالألوف بدلاً من الآحاد القلائل الذين يعملون اليوم. ولكان أولئك الذين لا يستطيعون أن يندمجوا في سلك العمل الكرازي بأنفسهم يخدمون قضية الْمَسِيحِ بأموالهم وعطفهم وصلواتهم، ولوجدنا في البلدان الْمَسِيحية، غيرة أكثر واجتهادًا أوفر لربح النفوس.

ولسنا في حاجة إلى أن نذهب إلى تلك الأقطار الوثنية البعيدة لنخدم الْمَسِيحَ، أو نغادر محيطنا الضيق الذي نعيش فيه إن كان هو المكان الذي يجب علينا أن نعمل فيه من أجل الْمَسِيحِ. فنستطيع أن نخدم ونحن في المحيط العائلي وفي الكنيسة، كما نستطيع أن نخدم أَيْضًا بين من نخالطهم ونزاملهم ونعمل معهم.

قضى مُخَلِّصُنَا الشَّطرَ الأكبرَ من حياتِه وهو يعمل في حِرْفَة النّجّارة بمدينة الناصرة، وقد كانت الملائكة تخدمه، وهو يسير جنبًا إلى جنب مع الفلاحين والعمال الذين لم يلقوا عليه بالاً ولم يعيروه التفاتًا مع أنه رب الحياة. وكان يؤدي رسالتَه بكل صبرٍ وأمانة في حرفته المتواضعة، كما كان يؤديها وهو يشفي مريضًا، أو وهو يمشي على بحر الجليل الهائج المائج. وهكذا يمكن كل إنسان أن يكون في خدمة يَسُوعَ، وهو يمارس أوضعَ الحرف وأحقرَ الأعمال.

ولذلك يقول الرسول بولس: «مَا دُعِيَ كُلُّ وَاحِدٍ فِيهِ أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَلْيَلْبَثْ فِي ذَلِكَ مَعَ اللهِ» ١كورنثوس ٧: ٢٤. فالتاجر يستطيع أن يدير عمله بكيفية تمجّد سيده، إذا راعى الأمانة في شغله. واذا كان تابعًا أمينًا للمسيح، فسيجعل ديانته تتخلل كل معاملاته، ويظهر روح الْمَسِيحِ في كل تصرفاته. والصانع يمكنه

أن يكون مُجِدًّا وأمينًا، ممثلاً سيده الذي كان يكدح مؤديًا رسالته في أبسط الأعمال وأصغرها بين تلال الجليل. وهكذا يجب على كل من يُسمّي اسم الْمَسِيحِ، أن يؤدي عمله على الوجه الذي يقود فيه الآخرين إلى تمجيد خالقهم وفاديهم.

غير أنّ الكثيرين يعتذرون عن تقديم خدماتهم للمسيح، بحجة أنّهم ليسوا كغيرهم ممَّن خصَّهم اللهُ بمزايا عظمى، ومواهب ممتازة. حتى لقد ساد عند بعضهم الاعتقاد بأنّ التكريس للخدمة يستلزم كفاءاتٍ نادرة ومؤهلات خاصة لا تتوافر إلا في فئة قليلة من الناس الذين خصَّهم اللهُ دون سواهم بالمساهمة في الخدمة والجزاء. ولكن هذه الفكرة لا تتفق والمثل الذي ضربه الْمَسِيحُ اذ أوضح أنّ ربّ البيت دعا عبيده وأسند إلى كل واحد منهم عملَه الخاص.

فإن كان لنا روح المحبة، يمكن أن نؤدي أحقرَ واجباتِ الحياة، «من القلب كما للرب»، كولوسي ٣: ٢٣. وإذا كانت محبة اللهِ في قلوبنا، فإنها تتجلى في حياتنا، فتنبعث منا رائحة الْمَسِيحِ الزكية، ويكون تأثيرنا في الآخرين عاملاً على رفعتهم وإسعادهم.

فما عليك أن تنتظر حتى تتهيأ لك فرص عظيمة، وتحصل على مواهب خارقة العادة لكي تستطيع أن تخدم اللهَ. يجب ألا تكون مشغولاً بما يفتكر به العالم عنك، لأنه إذا كانت حياتك تشهد بطهارة إيمانك، وإخلاص بواعثك، وشدة رغبتك في خدمة الناس ونفعهم، فإن جهودك لن تضيع هباء.

وهكذا يستطيع أفقر إنسان وأحقر مخلوق من تلاميذ يَسُوعَ أن يكون بَرَكَة للآخرين. وقد لا يشعر بأنه يأتي عملاً يُذكر في هذه الحياة، ومع ذلك فإنه بتأثيره الخفيّ يحدثُ نتائجَ بعيدةَ المدى، إذ تتبارك، بسبب حياتِه وقدوتِه جموع غفيرة من الناس. وربما يظلّ غير شاعرٍ بمثل هذا التأثير في حياة الآخرين حتى ذلك اليوم الذي يكافأ من اللهِ. فأمثال هذا لا يشعرون أو يعرفون أنهم يقومون بأي عمل عظيم، فليس المطلوب منهم أن يقلقوا بالنسبة لنجاحهم، وإنما عليهم فقط أن يسيروا في هذه الحياة قُدُمًا، مؤدين عملهم في هدوء وأمانة، بحسب الدعوة التي دُعوا إليها، فهؤلاء لن يضيّعوا حياتَهم سدى، بل هم سيظلون في نموّ مطّرد حتى يصبحوا مشابهين لصورة الْمَسِيحِ ومثاله. وإذ هم عاملون مع اللهِ في هذه الحياة، فهم بذلك إنما يهيئون أنفسَهم لذلك العمل الأسمى، والفرح الخالص المُعدَّين لهم في الحياة الأخرى.

الفصل العاشر

التَّعرُّف باللّٰهِ

كثيرة هي الطرق التي بها يسعى اللّٰهُ ليقودنا إلى معرفته، وإلى الوئام والشركة معه. وتناجي الطبيعة مدركاتنا آنَاء الليل وأطراف النهار. ويتأثر القلب المفتوح بمجد اللّٰهِ كما تعكسه أعمال يديه. وتسمع الأذن الصاغية وتدرك همسات اللّٰهِ من خلال الطبيعة ذاتها. فكأنّي بالحقول الخضراء والأشجار الباسقة، وبالسّحب المارة والأمطار السّارة، وبخرير السّيل وجمال مجد السّماء تحدثنا عن خالقها وتدعونا إلى التعرّف به.

لقد مثّل مخلِّصُنا تعاليمَه بما في الطبيعة، وقارن الحقائق الأبدية الثمينةَ التي نطق بها بالأشجار والأطيار وبزهور الوديان والتلال وبالبحيرات الرائقة والسّماوات الرائعة، وألحقها بحوادث الحياة العادية وأحوالها اليومية لكيلا تغرب عن ذاكرة سامعيه بل يتّعظوا بها وسط انهماكات الحياة وأتعابها الكثيرة.

يريد اللّٰهُ أن يستمتع أولاده بحسن صنعته ويبتهجوا بالجمال البسيط المحتشم الذي زيّن به مسكننا الأرضي هذا، لأنّ اللّٰهَ يحب الجمال، ولاسيما جمال الأخلاق الذي يفضله على كل زينة خارجية مهما كانت. ويشتاق إلى أن يرانا مرتدين جمالاً كجمال الزهور الهادئ العجيب.

لو تأملنا أعمال اللّٰهِ لتعلّمنا منها دروسًا ثمينة في الطاعة له والاتكال عليه، من كل ما في الطبيعة من الأجرام الفلكية الكبيرة التي على مدى الأجيال تتبع مداراتها المتسعة المعينة لها، وكل ما في الكون من ذرّات صغيرة أَيْضًا، تطيع إرادة خالقها وهو يعتني بها ويقوم بحاجتها، وإنّ الذي يحمل العوالم الكثيرة السابحة في الفضاء الفسيح، هو الذي يعتني أَيْضًا بالعصافير التي تغرّد تمجيدًا لخالقها بلا خوف أو وجل، وهو الذي يهيمن على العامل إذ يخرج لعمله اليومي كما يهيمن

عليه في المخدع وفي أثناء رقاده وحين قيامهِ من النوم، وإنّه لا يفتأ يراقب الغنيَّ إذ يولم في قصره الولائمَ الفاخرةَ كما يراقب الفقيَر إذ يجمع أولادَه حول مائدتِه البسيطة ليقاسمهم خُبزَه الحاف. فليس من دمعة تذرف إلا ويراها اللهُ، وليس من ابتسامة إلا ويلاحظها بشوقٍ واهتمام.

لو آمنا بهذه القدرة ووثقنا بهذه العناية لطرحنا عنّا كل اهتمام زائد ولأبعدنا عنّا كل خيبة أمل، بل وتركنا جميع أمورنا صغيرة أكانت أم كبيرة، بين يدي القدير الذي لا تحيّره كثرة العناية ولا يثقله تعب الرعاية. ولكنّا نُمتّع نفوسَنا بالراحة التي طالما اشتقنا إليها.

إذ تبتهج مداركَك بجمال الأرضِ الخَلابِ اجتهد أن تتصوَّر في مخيلتك الأرض الجديدة التي لا تشوبها خطية ولا تمتد إليها سلطة الموت ولا يظهر عليها ظلّ اللعنة. ثمّ إذا بلغت الحدّ في تصورك اعلم أنها ستكون أجمل وأمجد بكثير من كل تصوراتِك، لأنك لا تستطيع أن ترى الآن، مع تنوع عطايا اللهِ في الطبيعة إلا لمحة خاطفة من مجده السني، كما هو مكتوب «مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ: مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ» ١كورنثوس ٢: ٩.

قد يفصحُ الشّعراء في وصف جمال الطبيعة ويبالغ العلماءُ في الكلام عن غرائبها. وأما الذي يتمتع بها تمتعًا مشبعًا فهو المؤمن لأنه يرى فيها عمل يدِ أبيه ويميّز دلائل حبه تعالى في زهورها وأشجارها وأثمارها. وأما الذي لا يميّز محبة اللهِ في النجاد والوهاد، وفي الأنهر والأبحر، فلا يعرف معناها ولا تناجيه بما تكنّه له من محبة وعناية.

يكلِّمنا اللهُ أَيْضًا في عنايته بنا ويناجينا بفعل روحه القدوس فينا. فإنّ حوادث عنايته والتقلّبات التي نشاهدها من يوم إلى يوم، لو فطنَّا لها، لتعلّمنا عن محبة بارينا. قد أنشد المرنم في ذلك واصفًا العناية الإلهية الدائمة فقال، «امتلأت الأَرْضُ مِنْ رَحْمَةِ الرَّبِّ» و «مَنْ كَانَ حَكِيمًا يَحْفَظُ هذَا، وَيَتَعَقَّلُ مَرَاحِمَ الرَّبِّ» مزمور ٣٣: ٥؛ ١٠٧: ٤٣.

يخاطبنا اللهُ كذلك في كلمته المُنزلة، وفيها يعلن صفاتِه بصيغة واضحة جلية إذ يعرّفنا فيها بأعماله العظيمة في فداء الإنسان ويسرد أمامَنا تاريخ الآباء والأنبياء القديسين الذين كانوا «تَحْتَ الاَلاَمِ مِثْلَنَا» يعقوب ٥: ١٧. وجاهدوا في أحوال كأحوالنا الصعبة، وولّوا هاربين مُنهزمين مثلنا، ثم عادوا وتشجعوا وانتصروا بنعمة اللهِ. ونحن إذ نراهم نتشجع أَيْضًا في سعينا وراء البرِّ. وإذ نقرأ عن اختباراتهم الثمينة وتمتّعهم بالنور والمحبة والبَرَكَة، وعن العمل الذي قاموا به بنعمة اللهِ وعن الروح

الذي أظهروه، يُضرم في قلوبنا لهيب الاشتياق إلى أن نقتدي بهم وأن نكون مثلهم وأن نسير مع اللهِ كما ساروا معه.

قال يَسُوعُ عن كُتُب العهد القديم إنَّها «هِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي» يوحنا ٥: ٣٩. وما قاله عن العهد القديم يصدق بالأحرى عن كُتُب العهد الجديد، لأنّ الكِتَاب المُقَدَّس كلّه لا يخبرنا إلا بالفادي الذي بدونه يكون الجنس البشري الهالك عديم الأمل في الحياة. نعم، إنّ الْمَسِيحَ هو موضوع إعلان الكِتَاب. فمن الكلمة الأولى، «فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ» تكوين ١: ١ إلى الأخيرة «هَا أَنَا آتِي سَرِيعًا» رؤيا ٢٢: ١٢ لا تقرأ إلا عن أعماله ولا تسمع إلا صوتَه، فإذا أردت أن تتعرَّف بيَسُوعَ عليك بقراءة الكُتُب المُقدَّسة.

املأ قلبَك إذًا بكلمة اللهِ، لأنها الماء الحيّ الذي يروي لظى عطشِك. كما أنها الخبز الحيّ من السّماء الذي يشبع فرط جوعك. ولقد صرَّح يَسُوعُ بذلك قائلاً: «إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جَسَدَ ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ» يوحنا ٦: ٥٤. ثم أردف موضحًا معناه «اَلْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ» عدد ٦٣. فكما أن أجسادنا تتغذى وتُبنى مما نتعاطاه من مأكل ومشرب، كذلك أرواحنا أَيْضًا، فإنها تستمد قوة وشجاعة مما نتأمل فيه من الأمور

الروحية الأبدية.

إنّ موضوع الفداء العجيب لمسألة «تَشْتَهِي الْمَلاَئِكَةُ أَنْ تَطَّلِعَ عَلَيْهَا». وهو سيكون موضوع دراسة المفديين وموضوع ترنمهم وتهللهم مدى الدهور الأبدية. إذًا، أفليس هو الآن جديرًا بالتفكير العميق والاعتبار الجدّي الدقيق؟ بلى، لأن محبة الْمَسِيحِ ورحمته وتضحيته العظيمة من أجلنا لتستلزم أعمق التأمل وأوفر التفكير. يجب أن نطيل التبصّر في صفات فادينا وشفيعنا ونديم النظر في رسالة ذاك الذي أتى ليُخَلِّصَ شعبه من خطاياهم. فإن التأمل في هذه المواضيع السّماوية يقوي محبتَنا ويزيد إيمانَنا ويملأنا ثقة ومحبة. فتصعد صلواتُنا إذ ذاك مقبولةً عند اللهِ لأنها تصدر عن ذهن مستنير وعاطفة مضطرمة وثقة ثابتة بيَسُوعَ واختبارٍ حيّ في قوته القادرة أن تخلّص «إِلَى التَّمَامِ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ بِهِ إِلَى اللهِ» عبرانيين ٧: ٢٥.

عندما نتأمل مليًّا في كمالات المُخَلِّص يتولّد فينا شوقٌ شديدٌ إلى تغييرٍ كاملٍ وتجديدٍ شاملٍ لنشترك في قداسته وطهارته. ذلك لأننا نزداد جوعًا وعطشًا إلى التشبّه به، حتى إذا صار الفادي الموضوع الشاغل في أفكارنا نلهج به في كلامنا ونظهره للعالم في حياتنا وأعمالنا.

هذا وليس الكِتَاب المُقدّس للعلماء فقط، بل قد خُصِّص أَيْضًا لعامة الناس وجاءت فيه الحقائق العظمى بشأن الخلاص واضحة وضوح الشَّمْس في رائعة النهار حتى لا يخطئ أحد الطريق ولا يضلّ عن سواءِ السبيل إلاّ من استقلّ برأيه وحاد عمدًا عن مشيئة اللهِ المعلنة الجلية.

يجب ألا نكتفي من شهادة إنسان ما بما يقول الكِتَاب المُقَدَّس، بل يجب أن نطالعَ كلمة اللهِ بأنفسِنا. إنّ اتكالنا على دراسة غيرنا يشلّ نشاطَنا ويُميت مواهبنا ويُضعف فينا القوى العقلية الثمينة التي لا تنمو إلا باستخدامها في مواضيع سامية يتطلب استيعابها مجهودًا عظيمًا متواصلاً. واذا حدث ذلك نفشل في إدراك معنى كلمة اللهِ. إنّ العقل إذا استُعمل في درس مواضيع الكُتُب المُقدّسة وفي مقابلة الآية بالآية ومقارنة الروحيات بالروحيات ليتَّسِعَ اتساعًا عجيبا بيِّنًا.

ليس ما يقّوي الإدراك مثل درسِ كلمة اللهِ، وليس ما يرفع الأفكار ويكسب العقل حذاقة مثل التأمل في الحقائق الكتابية العميقة المهذبة. فلو درس الإنسان الكلمةَ كما يجب لوجد فيها سعة عقلٍ وسموَ أخلاقٍ وثباتَ عزمٍ قلما نراها في هذه الأيام.

على أنّ الفائدة من قراءة الكِتَاب المُقَدَّس قراءةً عاجلةً بدون تروٍ ضئيلة جِدًّا. قد يقرأ المرء الكِتَابَ كله، من التكوين إلى

الرؤيا، ولا يرى شيئًا من جماله ولا يسبر شبرًا من غوره. وأما إذا أطال التأمل في آية واحدة فقط إلى أن يدرك معناها ويفهم مغزاها في تدبير الخلاص، فإنه يستفيد أكثر بكثير مما لو تلا فصولاً عديدة دون هدف ولا منفعة. إذن خذ كتابك معك واقرأ فيه كلما وجدت لذلك فرصة سانحة، واستذكر آياته التي تقرأها لأنه من الممكن أن تتأمل في الآيات وأنت ماشٍ في الشارع فتثبتها في ذاكرتك.

إننا لن نصير ذوي حكمة إلا إذا أعرنا الكِتَاب المُقَدَّس التفافًا جدّيًّا ودرسناه دراسة مصحوبة بالصَّلاة. لأنه، وإن كان في الكِتَاب فصول لا يخطئ أحدّ في فهمها، إلا أنّ فيه أَيْضًا فصولاً ذات معنى عميق بعيد الغور، لا يسهل فهمها لأول وهلة، فيجب إذن مقارنة الآيات بالآيات مع توخّي الدقة في البحث والتعمق في التفكير والصَّلاة. وبذلك تعود علينا دراسة الكِتَاب المُقَدَّس بالخير العميم والنفع الجزيل. فكما يبحث المُعَدِّن عن الأحجار الثمينة في جوف الأرض، هكذا يجب أن ننقّب في كلمة اللهِ عن كنز ثمين حتى نجد فيها حقائق ذات قيمة عظمى مما قد أُخْفي عن عيون كثيرين من الذين يقرأون الكِتَاب قراءة سريعة. فإنّ كلمة الوحي إذا وعيناها في قلوبنا وتدبرناها، كانت بمثابة جداول تتدفق من ينبوع الحياة.

وحذار من الإقدام على دراسة الكِتَاب دون أن تستعين بالصَّلاة. فقبل أن تتصفحه، يجب أن تطلب الاستنارة من الرُّوح الْقُدُس. ومتى طلبت فلا بد من أن تنال. إن يَسُوعَ حين رأى نثنائيل مقبلاً إليه قال عنه: «هُوَذَا إِسْرَائِيلِيٌّ حَقًّا لاَ غِشَّ فِيهِ. فقَالَ لَهُ نَثَنَائِيلُ، مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُنِي؟ أَجَابَ يَسُوعُ وقال له قَبْلَ أَنْ دَعَاكَ فِيلُبُّسُ وَأَنْتَ تَحْتَ التِّينَةِ رَأَيْتُكَ» يوحنا ١: ٤٧ و ٤٨. فيَسُوعُ الذي رأى نثنائيل وهو يصلّي تحت التينة يراك أَيْضًا وأنت تصلّي في مخدعك إن كنت تتلّمس منه النور لمعرفة الحق، بل إنّ ملائكة النور أنفسهم سيرافقونك ويأخذون بيدك إن كنت تطلب الهداية والإرشاد بروح الاتضاع والانقياد.

إنّ عمل الرُّوح الْقُدُس هو أن يعظّم المُخلّص ويمجّدَه، إذ إن الرُّوح هو الذي يقدّم لنا الْمَسِيحَ وبِرَّه وخلاصَه كما قال يَسُوعُ عنه «ذَاكَ يُمَجِّدُنِي لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ» يوحنا ١٦: ١٤. فإنما روح الحق دون سواه هو المعلّم المؤثّر الفعّال الذي يستطيع أن يعلّمنا الحق الإلهي.

ما أعظم تقدير اللهِ لجنسنا البشري، إذ أعطانا ابنَه ليبذل حياتَه لأجلنا. ووهبنا الرُّوح الْقُدُس ليكون معلمَنا ومرشدنا الدائم.

الفصل الحادي عشر

امْتِيازُ الصَّلاة

نعم، يكلّمنا اللهُ في الطبيعة والوحي، ويناجينا بأعمال العناية وبتأثير الرُّوح القُدُس فينا. لكنّ هذا كله لا يكفي، بل، لكي تكون لنا حياة وقوّة روحيّتان، يلزم أن نفيض له بمكنونات صدورنا، ونحادثه عن جميع أمورنا، فقد تنجذب إليه عواطفنا، وقد نتأمل أعماله ومراحمه وبَرَكَاته دون أن نكون قد تحدثنا إليه بالمعنى الحقيقي. ولكي يكون بيننا وبين اللهِ تحادث يجب أن نخبره، في صلاتنا إليه، بما في حياتنا من واقعيات.

إن الصَّلاة هي فتح القلب للهِ كما لو كنا نكلّم صديقًا حميمًا، وليست هي ضرورية لِيُعْلِمَ اللهَ بما نحن عليه، ولكنّها ضرورية لأنّها تمكننا نحن مِن قبول نعمته، إذ إنّها لا تُنزل اللهَ إلينا ولكنّها ترفعنا إليه تعالى.

علَّم يَسُوعُ تلاميذَه كيف يصلّون وأرشدهم إلى أن يعرضوا حاجاتهم اليومية لله، ويُلقوا كل همهم عليه. وأكدّ لهم أن طلبتهم تُستجاب، وما قاله لهم قاله لنا نحن أَيْضًا.

ويَسُوعُ نفسه، وهو حَالّ بين الناس، كان يصلّي كثير. فإذ اتحد بِنَا، وصارت حاجاتُنا حاجاتِه وضعفاتُنا ضعفاتِه، تضرّع إلى الآب لينال منه قوةً جديدةً وليخرج متشدّدًا لمواجهة واجبات اليوم وتجاربه. وهو في كل شيء مثالنا، كما أنه أخ لنا في ضيقاتنا، «مُجَرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا» عبرانيين ٤: ١٥، ولكنّه مع ذلك هو القُدّوس الذي نفرت طبيعته من الاثم، وقاسى صراعًا وعذابًا أليمًا وهو في عالَم الخطية، فأصبحت الصلّاة ضرورية له في طبيعته البشرية، بل لذّة وامتيازًا. ووجد في التحدّث إلى الآب فرحًا وعزاءً. فإذا كان مُخلّص الناس، ابنُ اللهِ الحبيب، قد شعر بحاجةٍ إلى الصّلاة، فكم هو أجدر بنا نحن الضعفاء والأثمة المائتين أن نشعر

بحاجتِنا إلى الصّلاة الحارّة المستديمة.

يترقب أبونا السَّمَاوي الفرص ليغمرنا بكامل بَرَكَاته. إنّه لمِن ميزاتنا أن نشرب جرعات مشبعة مِن ينبوع محبته، فما أغرب قلة صلواتِنا إليه. إنّ اللهَ لمستعد وراضٍ أنْ يسمع الصّلاةَ الخالصةَ الصاعدةَ من أوضع أولاده، ومع ذلك نرى بيننا ترددًا ظاهرًا في إعلامه حاجاتِنا. وماذا يظنّ الملائكة في أناسٍ مساكين ضعفاء مُعرّضين لتجارب قوية، وهم على رغم ذلك لا يُصلّون إلا قليلاً، ولا يؤمنون إلا يسيرًا! وأما اللهُ فإنّه مشتاق إليهم، راغب في أن يهبهم أكثر جدًّا مما يتصورون. وها الملائكة يُسرّون بالسجود أمام اللهِ ويحبون القرب منه تعالى ويتلذذون بالتحادث إليه، ولكن أولاد آدم، وهم في مسيس الحاجة إلى عونه تراهم مكتفين بأن يسلكوا بدون نور الرُّوح الْقُدُس وبدون مرافقته لهم وحضوره معهم.

يخيِّم الشرير بظلامه على أولئك الذين يهملون الصّلاة، ويغريهم على الخطية إذ يهمس في قلوبهم بوسوسته، ذلك لأنهم لا يستغلون امتيازاتهم التي أنعم بها اللهُ عليهم في الصّلاة. ولماذا يحجم بنو اللهِ عن الصّلاة وهي المفتاح في يد الإيمان به يفتحون خزائن السّماء المذخّر فيها وفور غنى القادر على كل شيء؟ وإن لم ندأب في الصّلاة ونجاهد في السهر نعرّض أنفسنا لخطر الإهمال ثم الحيدان عن الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم، لأن العدو يسعى سعيًا متواصلاً فيضع العراقيل في الطريق المؤدي إلى عرش النعمة. وهو يمنعنا من الحصول على النعمة والقوة لمقاومة التجارب بواسطة الإيمان والصّلاة.

أجل يشترط اللهُ شروطًا معينة لا بدّ من إيفائها ليستمع لدعائنا ويستجيب لطلباتنا. أولها أن نشعر بحاجتنا إلى معونته، فقد وعد قائلاً: «أَسْكُبُ مَاءً عَلَى الْعَطْشَانِ وَسُيُولاً عَلَى الْيَابِسَةِ» إشعياء ٤٤: ٣. فالذي يجوع ويعطش إلى البِرِّ ويشتاق إلى اللهِ، لا بدّ من إشباعه، ولكن يجب أن يكون قلبه مفتوحًا لتأثير الرُّوح الْقُدُس وإلا فالبَرَكَة لا تأتيه.

إنّ أقوى حججنا لنيل البَرَكَات هي حاجتنا إليها عينًا، فإنها تشفع فينا بأفصح العبارات. إلا أنه يجب علينا أن نطلب من اللهِ أن يعمل لأجلنا، كما قال: «اطْلُبُوا تَجِدُوا» متى ٧: ٧، و «اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ» رومية ٨: ٣٢.

إن راعينا إثمًا في قلوبنا، أو تمسكنا بخطية واحدة معلومة لدينا، لا يستمع

لنا الرَّب، ولكنه في كل وقت يقبل صلاة النَّفْس التائبة المنسحقة. عندما نصلح كل الأخطاء المعلومة، يحق لنا أن نؤمن بأن الرَّب قد سمع وأنه ليستجيب صلواتنا. لا يمكننا أن نرضي اللهَ باستحقاقاتنا إذ لا يمكننا أن نَخْلُصَ إلا باستحقاقات الْمَسِيحِ وحدها. فدمه الثمين هو الذي يطهرنا. ومع ذلك فعلينا واجب نقوم به لإيفاء شروط القبول. عامل آخر للصّلاة المنتصرة هو الإيمان «لأَنَّهُ يَجِبُ أَنَّ الَّذِي يَأْتِي إِلَى اللهِ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مَوْجُودٌ، وَأَنَّهُ يُجَازِي الَّذِينَ يَطْلُبُونَهُ» عبرانيين ١١: ٦. وقد قال الْمَسِيحُ لتلاميذه «كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ فَيَكُونَ لَكُمْ» مرقس ١١: ٢٤. فهل نعتمد على كلمته؟ والتأكيد هنا واسع وغير محدود، لأنه أمين هو الذي وعد. وحتى إن كنا لا نحصل على الأشياء التي طلبناها بالذات، وفي الوقت الذي تقدمنا بطلبنا إليه، فمع ذلك، علينا أن نؤمن بأن الرَّب يسمع وسوف يستجيب لصلواتنا. لأننا ونحن خطاة قصار البصر، كثيرا ما نطلب ما هو لضررنا، وأما أبونا السَّمَاوي فحبًّا لنا ورفقًا بِنا يستجيب صلواتنا بأن يعطينا ما هو لخيرنا الأكبر وما كنا لنطلبه لأنفسنا لو استنيرت أذهاننا وعرفنا الأمور على حقيقتها. فعندما يبدو لنا أن صلواتنا غير مستجابة يجب أن نتمسك بالوعد، لأنه لا بد من أن يأتي وقت الاستجابة وننال البَرَكَة التي نحن في أشد الحاجة إليها. وأما الادّعاء بأن صلواتنا تستجاب بالكيفية التي نعيِّنها نحن وفي الشيء نفسه الذي نطلبه فهو تطفّل، بل تصلّف، لأن اللهَ أحكم من أن يخطئ وأصلح من أن يمنع خيرًا عن السالكين بالكمال. فلا تخشَ الاتكال عليه حتى إذا كنت لا ترى الجواب فورًا عما طلبت، بل ثق بالوعد الأكيد القائل «اسْأَلُوا تُعْطَوْا».

أما اذا أخذنا بمشورة شكوكنا، وسرنا على رأي مخاوفنا، وأردنا أن نحلّ كل معضلة قبل أن نؤمن باللهِ، فلا نزداد إلا حيرة وارتباكًا. ولكن إذا أتينا إليه شاعرين بنقصنا وقصر باعنا، وبإيمان وديع وثقة ثابتة أعلمناه بحاجتنا، وهو العليم بما في السّماء وعلى الأرض ويرى كل ما في الخليقة ويسيّر كل شيء بكلمته وبحسب إرادته، فهو القادر أن يسمع دعاءنا وينير قلوبنا. وهكذا بصلواتنا المُخلِصَة نصير على اتصال بفكر القادر على كل شيء. وقد لا نرى دليلاً قاطعًا على أنّ المُخَلّصَ يحنو علينا ويحبونا برحمته ومحبته، وقد لا نحسّ بلمسة يده على جباهنا في رفق وحنان، ومع ذلك هذه هي الحقيقة الراهنة.

وإذ نأتي إلى اللهِ لنطلب مِنْه رحمة

وغفرانًا يجب أن يملأ قلوبنا روح التسامح والمحبة للآخرين. وكيف يمكننا أن نصلي قائلين: «وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضًا لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا» متى ٦: ١٢ ومع ذلك ننغمس في روح الانتقاد وعدم الإغضاء؟ فإنه على قدر ما نتوقع أن يسمع لنا ويسامحنا، على هذا القدر عينه يجب أن نصفح نحن للآخرين ونسامحهم.

جعل اللهُ المثابرة على الصَّلاة شرطًا لاستجابتها، فقد أمرنا أن نصلي بلا انقطاع لكي نتقوى في الإيمان ونتقدم في الاختبار. فأمر أن نواظب «عَلَى الصَّلاَةِ»، وأن نسهر «فِيهَا بِالشُّكْرِ»، ونتعقل ونصحو «لِلصَّلَوَاتِ»، و «فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالصَّلاَةِ وَالدُّعَاءِ مَعَ الشُّكْرِ، لِتُعْلَمْ طِلْبَاتُكُمْ لَدَى اللهِ»، و «انتم أيها الأحباء ... مصلين في الرُّوح الْقُدُس ... احفظوا أنفسكم في محبة اللهِ»؛ رومية ١٢: ١٢؛ كولوسي ٤: ٢؛ ١بطرس ٤: ٧؛ فيلبي ٤: ٦؛ يهوذا ٢٠ و ٢١. في المواظبة على الصّلاة تتحد النّفْس باللهِ اتحادًا لا تنفصم عراه، فتجري حياة من اللهِ إلينا، وترجع إليه تعالى لمجد اسمه في طهارتنا وقداستنا.

إن المثابرة على الصّلاة لضرورية حيوية، فيجب ألا يعوقك عنها شيء. ابذل الجهد لتكون نفسك على اتصال دائم بيَسُوعَ، واغتنم كل فرصة تسنح للذهاب إلى حيث تجري العادة أن تكون صلاة.

إنَّ الذي يطلب محادثة اللهِ تراه في اجتماع الصّلاة قائمًا بواجبه، مهتمًّا به، مجدًّا في الحصول على كل بَرَكَة وفائدة، ملتمّسًا أن يكون حيث تضيء عليه الأشعة السّماوية.

يجب أن نصلي في دائرة العائلة، ولكن الصّلاة الانفرادية هي أكثر الصلوات إحياء للنَّفْس وقوة لها. فإذا ما أُهملت تذبل النَّفْس ولا تستطيع أن تزهو وتثمر. ولا تغني الصّلاة العائلية أو الصَّلاة العمومية في المجتمع عن الصَّلاة الانفرادية في المخدع، إذ أننا نحتاج أن نكشف نفوسنا أمام اللهِ على انفراد وأن نصعد ابتهالاتنا إلى اذني رب الجنود حيث لا تسمعها أذن بشرية. والنَّفْس في المخدع تكون بعيدة عن كل تأثير خارجي وفي معزل عن كل ما قد يثير الحواس أو يهيّج العواطف، فتتلمس اللهَ بهدوء وحرارة عظيمين. ما أحلى البَرَكَات المنبثقة حينئذ من الذي يرى في الخفاء ويسمع كل صلاة تصعد من صميم الفؤاد، وهكذا، بالإيمان البسيط الهادئ، تتمسك اَلنَّفْسُ بقوة اللهِ وتجمع لذاتها أشعة نوره لتسندها في محاربتها الشَّيْطانَ الرجيم. إنَّ اللهَ لبُرجها الحصين.

فَصَلِّ إذن في مخدعك، وليكن قلبك

مرفوعًا إلى اللهِ وأنت تباشر أعمالك اليومية، لأنه هكذا سار أخنوخ مع اللهِ. ومثل هذه الصّلوات الصامتة تصعد أمام عرش النعمة كالبخور العطر، ولن يغلب الشَّيْطانُ أبدًا الإنسان الذي يستند على اللهِ هكذا في قلبه.

وليس من مكان أو زمان لا يليق رفع الطلبة إلى اللهِ فيهما. وليس من عائق يستطيع أن يمنعنا من التوجّه إليه في قلوبنا في روح الصَّلاة الحارة طالبين في شوارع المدينة المزدحمة أو في وسط صفقة تجارية، الإرشاد الإلهي، كما فعل نحميا وهو مائل في حضرة المَلك ارتحشستا. لأننا حيثما كنا فنحن مع اللهِ كما في مخدع، وقلوبنا مفتوحة تدعو يَسُوعَ أن يمكث فيها ضيفًا كريمًا محبوبًا.

ولئن كنا محاطين بجو فاسد مميت، لا يتحتم علينا أن نستنشق هواء، المفسد. في إمكاننا أن نحيا في جو السَّمَاء النقي المنعش بأن نوصد كل باب في وجه التصورات النجسة والتفكرات الدنسة، ونرفع قلوبنا إلى اللهِ في صلاة خالصة، فالذي يرفع نفسه إلى اللهِ لقبول عونه وبَرَكَتِه يسير في جو أقدس من الذي يحيط بالأرض، ويتصل بالسّماء اتصالاً وثيقًا دائمًا.

من حاجاتنا الماسة أن نرى يَسُوعَ رؤية أجلى وأوضح وأن ندرك قيمة الحقائق الأبدية إدراكًا أكمل. يجب أن تملأ زينة القداسة حياةَ أولاد اللهِ، ولا يتمّ لهم هذا إلا إذا طلبوا أن يعلن لهم اللهُ الأمور السَّمَاوية إعلانًا جليًّا.

فلتنجذب اَلنَّفْس إلى فوق ليمنحها اللهُ أن تتنسم نسيم السَّماء. لأنه في إمكاننا أن نعيش قريبًا من اللهِ حتى تتجه أفكارنا إليه إذا داهمتنا تجربة كما تتجه زهرة الأُقْحُوَان نحو الشَّمس على الدوام.

إِعْـرِضْ حاجاتِـك وأفراحـك وأحزانـك وهمومَـك ومخاوفَـك أمـام اللهِ بصـورة دائمـة، لأنـه لا يقلـق مـن كثرتهـا ولا يمـل مـن عددهـا. فالـذي يحـصي شـعر رؤوسـنا، ألا يهتـم بحاجـات أولاده؟ بـلى. «الـرَّبَّ كَثِـيرُ الرَّحْمَـةِ وَرَؤُوفٌ» يعقـوب ٥: ١١، وقلبـه المحـب يتأثـر مـن أحزاننـا حـتى مـن ذكرهـا لـه. فاذهـب إليـه بـكل مـا يحـيّر فكـرك واثقًـا أنّ الـذي يحمـل العالمـين بكلمتـه ويسـيّر الكواكـب حسـب إرادتـه لا يعظـم عليـه أمـر، ولا يسـتصغر أمـرًا مـا حـتى لا يعـيره التفاتًـا، وليـس في أختباراتنـا فصـل لا يسـتطيع أن يقـرأه ولا في حياتنـا معضلـة لا يعـرف حلهـا. ولا تصيـب أحـد أولاده الأصاغـر نكبـة، ولا يبهجهـم فـرح، ولا يسـاورهم خـوف، ولا تصعـد صـلاة خالصـة مـن شـفاههم، إلا ويعلـم بهـا أبونـا السَّـمَاوي ويهتـم لهـم بهـا. فهـو «يَشْـفِي الْمُنْكَـسِرِي الْقُلُـوبِ، وَيَجْـبُرُ كَسْرَهُـمْ» مزمـور ١٤٧: ٣، ويعامـل كل نفـس معاملـة فارقـة كاملـة كأنهـا هـي الوحيـدة الـتي بـذل ابنـه لأجلهـا.

قـال يَسُـوعُ: «تَطْلُبُـونَ بِاسْـمِي. وَلَسْـتُ أَقُـولُ لَكُـمْ إِنِّي أَنَـا أَسْـأَلُ الآبَ مِـنْ أَجْلِكُـمْ لأَنَّ الآبَ نَفْسَـهُ يُحِبُّكُـمْ» و «أَنَـا اخْتَرْتُكُـمْ ... لِـكَيْ يُعْطِيَكُـمُ الآبُ كُلَّ مَـا طَلَبْتُـمْ بِاسْـمِي»، يوحنـا ١٦: ٢٦ و ٢٧؛ ١٥: ١٦. ولكـن الطلـب باسـم يَسُـوعَ لا يعـني مجـرد ذكـر اسـمه العزيـز في مسـتهل الصّـلاة أو في ختامهـا، بـل يعـني أن يكـون فينـا فِكْـر الْمَسِـيحِ وروحـه وأن نكـون مؤمنـين بمواعيـده، متكلـين عـلى نعمتـه وممارسـين أعمالـه.

وإذ يطلـب اللهُ مِنَّـا أن نعكـف عـلى التعبّـد والصّـلاة، فهـذا لا يعـني أن نعـتزل هـذا العالـم ونلجـأ إلى الأديـرة والصوامـع لكي نحيـا حيـاة الترهّـب والتنسّـك. بـل يجـب أن نكـون مقتديـن بيَسُـوعَ الـذي كان يقـضي يومـه بـين الاختـلاء في الجبـل وخدمـة الجمهـور. فمـن يحـاول أن يقـضي الوقـت كلـه في الصّـلاة لا يلبـث أن يهجرهـا أو يأتيهـا كروتـين شـكلي، ذلـك أن الإنسـان عندمـا ينـتزع نفسـه من حياة المجتمـع ويتنـاءى عـن الواجـب الْمَسِـيحي ويتهـرّب مـن حمـل الصّـليب، وعندمـا يتوقـف عـن العمـل بإخـلاص مـن أجـل السّـيد الـذي عمـل بإخـلاص مـن أجلـه، تفـتر همتُـه وتصـير صلاتـه بـدون هـدف وبـدون باعـث وتصبـح طلباتـه مقتـصرة عـلى ذاتيتـه ومحصـورة في دائـرة أنانيتـه. فـلا يصـلي لأجـل حاجـات البـشر عامـة أو لأجـل تقـدم ملكـوت اللهِ أو للحصـول عـلى قـوة لـكي يخـدم ربَّـه خدمـة ناجعـة مقبولـة.

إننـا إن أهملنـا واجـب المعـاشرة واغفلنـا تشـجيع وتقويـة بعضنـا البعـض عـلى المُـضي

في خدمة اللهِ، نخسر خسارة أيّة خسارة. فتفقد الحقائق الإلهية قوتها على إحيائنا، وتقل أهميتها في نظرنا، فلا تؤثر بعد في أفكارنا لإنارتها وتقديسها، فننحط انحطاطًا روحيًّا متواليًا. وكمسحيين، سنخسر الكثير نتيجة عدم إظهار تعاطفنا واحدنا مع الآخر فالذي يعيش بمعزل عن الناس وينطوي على نفسه لا يملأ المقام المعين له مِن اللهِ. فالتهذيب اللائق للمبادئ الاجتماعية في طبيعتنا، يؤدي بنا الى التعاطف مع الآخرين، وتصبح وسيلة لتطويرنا وتقويتنا في خدمة اللهِ.

لو كان الْمَسِيحيونَ يجتمعون للتحادث عن محبة اللهِ وعن حقائق الفداء الثمين لشرحوا بذلك خواطرهم وانعشوا بعضهم بعضا. لأنه في إمكاننا أن نتقدم كل يوم في معرفة اللهِ ونختبر اختبارات جديدة في نعمه، وإذ ذاك نرغب في التكلّم عن محبته وتلتهب قلوبنا فينا ونتشجع. فلو زدنا في التفكير والتحادث عن يَسُوعَ وقلَّلنا من التكلّم عن أنفسنا لتمتعنا بدوام حضوره معنا وحلوله بيننا.

لو كان تفكيرنا في اللهِ يعادل ما نراه من الدلائل على عنايته بنا لَكنَّا نفكر فيه على الدوام نُسرّ بالتكلّم عنه ونلهج بحمده. إننا نتحادث عن الأمور الزمنية لأننا نهتم لها، ونذكر أحباءنا لأننا نحبهم ونرتبط بهم في أفراحنا وأتراحنا. بيدَ أن أسباب محبتنا لله كثيرة لا تقاس مقارنة مع أسباب محبتنا لإخوتنا في البشرية. فيجب أن يكون غريزيا فينا أن نجعله الأول في أفكارنا لنذكر حسناته ونخبر بقوته. ولم يكن القصد من هباته الغنية التي يُنْعِم بها علينا أن نستغرق فيها ونغرم بحبها حتى لا يكون لنا وقت للتفكير في واهبها، بل كان القصد منها أن تذكّرنا دومًا به تعالى وتربطنا به برباط المحبة والشُّكْران الشَّديدين. ولكننا نسكن في الحضيض، فلنرفعن أعيننا إلى باب المَقدْس السَّمَاوي المفتوح حيث نرى مجد اللهِ المضيء من وجه يَسُوعَ الْمَسِيحِ القادر «أَنْ يُخَلِّصَ أَيْضًا إِلَى التَّمَامِ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ بِهِ إِلَى اللهِ» عبرانيين ٧: ٢٥.

يلزم أن نكثر الحمد «عَلَى رَحْمَتِهِ وَعَجَائِبِهِ لِبَنِي آدَمَ» مزمور ١٠٧: ٨، وألا تقتصر عبادتنا على الطلب والأخذ. فلا نفكر دائمًا في حاجاتنا ونغضّ الطرف عما بين أيدينا من النِّعَم والبَرَكَات، لأننا، وإنْ كنا لا نصلي أكثر مما يلزم وإنما نبخل في تقديم الشُّكر اللائق، نرى مراحم الرَّب التي تغمرنا على الدوام، وما أقل شكرنا وما أشد بخلنا في الحمد له على كل ما صنع لأجلنا.

قـال اللهُ لإسرائيـل قديمًـا إذْ اجتمعـوا لخدمتـه: «تَأْكُلُونَ هُنَاكَ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِكُمْ وَتَفْرَحُونَ بِكُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَيْدِيكُمْ أَنْتُمْ وَبُيُوتُكُمْ كَمَا بَارَكَكُمُ الرَّبُّ إِلهُكُمْ» تثنية ١٢: ٧. فالـذي نعملـه لمجـد اللهِ إنما يجـب أن نعملـه بفـرح وبترانيـم الحمـد والشُّـكر، لا بالغـم والاكتئـاب.

إنّ إلهنا لآب رؤوف فيجـب ألا نحسـب الخدمـة لـه عمـلاً شـاقًا مكـدّرًا. ينبغـي أن نعبـد اللهَ بـسرور ونشـارك في عملـه. وأنـه لا يـسرّه أن يعمـل أولاده مـن أجلـه وكأنـه سـيد صـارم مسـخر وهـو الـذي وفـر لهـم خلاصًـا هـذا مقـداره. إنـه أفضـل صديـق لنـا. وإذ يعبدونـه يريـد الحضـور معهـم ليباركهـم ويعزيهـم ويمـلأ قلوبهـم فرحًـا ومحبـة. يتـوق اللهُ أن يشـعر أولاده بالراحـة في خدمتـه ويجـدوا لـذة ومـسرة بـدلاً مـن المشـقة في عملـه. ويرغـب في أن الذيـن يعبدونـه تمتـلئ عقولهـم بأفـكار ثمينـة عـن رعايتـه ومحبتـه، وبهـذا ينالـون التشـجيع للقيـام بالواجبـات اليوميـة، ويحصلـون عـلى نعمـة تمكّنهـم مـن الاسـتقامة والأمانـة في جميـع معاملاتهـم.

فلنجتمـع حـول الصَّلِيـب ولنجعـل الْمَسِيحَ وإيـاه مصلوبًا مـدار تأملاتنا وموضوع محادثاتنـا ومبعـث فرحنـا وابتهاجنـا. ولنتذكـر كُلَّ بَرَكَـةٍ تأتينـا مِـن اللهِ حـتى إذا مـا تحققنـا عظـم محبتـه نثـق بـه ونـودع بـين يديـه المُسَـمَّرتين كل أمورنـا عـن رضى مطمئنـين.

إنّه في استطاعة النَّفْس أن تسمو وتعلو إلى السّماء على أجنحة الحمد والشُّكر. فاذ نُعبِّر عن شكرنا له بصوت الترنّم تصير عبادتنا كعبادة الجيوش السَّماوية التي تُقدِّم لله الحمـد بقيثارات ونغمات مفرحة، ولقد قال تعالى إنَّ «ذَابِحُ الْحَمْدِ يُمَجِّدُنِي» مزمور ٥٠: ٢٣، فهلمَّ نتقدم إلى خـالقنا ونهـتف له بصـوت «الْحَمْدُ وَصَوْتُ التَّرَنُّمِ» إشعياء ٥١: ٣.

الفصل الثاني عشر

التَّعامُل مع الشُّكوك

كثيرون تضايقهم الأفكار وتقلقهم الشّكوك، ولا سيما حديثو الإيمان، ذلك لأنهم يصادفون في الكُتُب المُقدَّسة آيات لا يستطيعون تفسيرها ولا فهمها، يستخدمها الشَّيْطَانُ لإثارة الشَّك في كونها موحى بها من اللهِ. فتراهم يتساءلون متحيرين، «كيف يمكننا أن نعرف السّبيل السّوي؟ فإذا كان الكِتَاب المُقَدَّس كلمة اللهِ حقيقة، كيف يتسنى لنا أن نتحرر من الشّكوك والارتباكات؟»

إنّ اللهَ لمَ يطلب مِنَّا أن نؤمن دون أن يقدِّم لنا بيِّنات كافية نبني عليها إيماننا. فالشّواهد التي تدلنا على وجود اللهِ، وتظهر لنا صفاته وسجاياه، وتثبت صدق أقواله، متوافرة لدينا، وهي مستساغة للعقل أَيْضًا. ومع ذلك فإنّه تعالى لم يُزِل إمكانية الشّك، اذْ يجب أن يقوم إيماننا على البيان، لا على العيان. ومن ثم يكون لنا أن نختار بين أن نؤمن أو نرتاب. فمن أراد أن يرتاب يجد ما يتعلل به، ومن أراد أن يؤمن فلا تعوزه البينة ولا ينقصه الدليل.

بيد أنّه يستحيل على عقولنا أن تدرك كُنْه اللهِ، أو أن تستوعب أعماله، لأنه تعالى محاط بأسرار تحير حكمة العالَم. فإنّ أذكى الأذهان المثقفة تعجز عن استيعابها وإدراكها، بل يقف العلماء منها موقف من قال: «أَإِلَى عُمْقِ اللهِ تَتَّصِلُ أَمْ إِلَى نِهَايَةِ الْقَدِيرِ تَنْتَهِي؟ هُوَ أَعْلَى مِنَ السَّمَاوَاتِ فَمَاذَا عَسَاكَ أَنْ تَفْعَلَ؟ أَعْمَقُ مِنَ الْهَاوِيَةِ فَمَاذَا تَدْرِي» أيوب ١١: ٧ و ٨.

وكَتَب الرسول بولس في ذلك هاتفًا بتعجب: «يَا لَعُمْقِ غِنَى اللهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ! مَا أَبْعَدَ أَحْكَامَهُ عَنِ الْفَحْصِ وَطُرُقَهُ عَنِ الِاسْتِقْصَاءِ» رومية ١١: ٣٣. لكن، ولئن كان «السَّحَابُ وَالضَّبَابُ حَوْلَهُ. الْعَدْلُ وَالْحَقُّ قَاعِدَةُ كُرْسِيِّهِ» مزمور ٩٧:

٢. وفي استطاعتنا أن نفهم معاملته للناس وأن نعرف بواعثه، فنرى فيها محبة أبدية متحدة بقوة فائقة الحد. ونستطيع أَيْضًا أن ندرك مِن مقاصده ما هو لمنفعتنا. وأما فيما عدا ذلك فإننا نثق بمحبته ونتكل على قوته.

كذلك كلمة اللهِ أَيْضًا، فيها كما في مُنزّلها، أسرار لا يمكن استقصاؤها. وأهم مواضيعها، كدخول الخطية إلى العالم، وتجسّد الْمَسِيحِ، والتجديد والقيامة، وما إلى ذلك من مكنونات الكُتُب المُقدَّسة، كلّها أعماق لا يصل الإنسان إلى سبر غورها. ولكن عدم استطاعتنا أن ندرك أعمال العناية الإلهية ليس مما يدعو إلى عدم الإيمان بها. فنحن مُحاطون في عالَم الطبيعة، بأسرار لا يمكن الوصول إلى فهمها. فلم يستطع فطاحل العلماء والفلاسفة أن يفهموا كُنْه الحياة الظاهرة في أبسط مخلوقات اللهِ. إننا حيثما نلتفت نجد أسرارًا لا ندركها. فهل نستغرب إذًا وجود أسرار في العالم الروحي يعسر علينا فهمها؟ والصعوبة ليست في الحقائق نفسها بل في ضعف العقل البشري وقصره. ومع ذلك فقد أعطانا اللهُ في الكُتُب المُقدَّسة بيانات كافية لإثبات الحقيقة أنها من مصدر إلهي، فلا نشك فيها لمُجرد أننا لا نستطيع فهم كل أسرار عنايته الإلهية.

نعم، في الكُتُب المُقَدَّسة، كما قال الرسول بطرس: «أَشْيَاءُ عَسِرَةُ الْفَهْمِ، يُحَرِّفُهَا غَيْرُ الْعُلَمَاءِ وَغَيْرُ الثَّابِتِينَ ... لِهَلاَكِ أَنْفُسِهِمْ» ٢بطرس ٣: ١٦. وقد اتخذ الملحدون هذه الأشياء العسرة الفهم حجة ضد الكِتَاب المُقَدَّس. بيد أنّ النتيجة يجب أن تكون على النقيض من ذلك، لأن هذه الصعوبات تكون حجة قوية على وحيه الإلهي. فإذا خلت الكُتُب المُقَدَّسة، في إخبارها إيَّانا عن أمور اللهِ، من كل ما يعسر علينا فهمه. ولو أدركت العقول البشرية الضعيفة ما جاء فيها عن عظمته وجلاله، لاعتُبِر هذا الخلو برهانًا على أنها لا تحمل سمة اللهِ التي لا تخطأ عن سلطانه الإلهي. أما سمو مواضيعها وجلالها فيولدان في القلوب إيمانًا بها وثقة بأنها كلمة اللهِ المُنزّلة.

يعرض الكِتَابُ المُقَدَّس الحق ببساطة وملاءمة تامة مع حاجات البشر وأشواق قلوبهم بطريقة أذهلت ذوي العقول المثقفة واستهوتهم، وفي الوقت ذاته يُمكِّن أبسط الناس وغير المتعلمين منهم من تمييز طريق الخلاص. غير أن الحقائق التي يُعَبِّر عنها الكِتَاب المُقَدَّس ببساطة متناهية تتناول مواضيع سامية، شديدة العمق فائقة الإدراك البشري، حتى أننا نؤمن بها

فقـط لثقتنـا بـأنّ اللهَ تعـالى هـو معلنهـا. فـنرى تدبـير الفـداء موضَّحًـا بحيـث تعرف كل نفـس الخطـوات الـتي عليهـا أن تخطوهـا في التوبـة إلى اللهِ والإيمـان بربنـا يَسُـوعَ الْمَسِـيحِ لـكي تنـال الخـلاص بالطريقـة الـتي عيَّنهـا اللهُ. ومـع ذلـك يحـوي هـذا التدبـير الواضح أسرارًا يتسـتر فيهـا مجـد اللهِ، تذهـل عقـول دارسـيها وتلهـم المُخلِصـين في طلـب الحـق وقـارًا وإيمانًـا. واذا أمعـن القـارئ النَّظـر فيهـا ازداد اقتناعًـا ويقينًـا بأنهـا كلمـات اللهِ الحـي. فينحـني المنطـق البـشري أمـام جـلال الوحـي الإلهـي. إن اعترافنـا بأننـا لا نسـتطيع أن نفهـم حقائـق الكِتَـاب المُقَـدَّس فهمًـا كامـلاً، مـا هـو إلا إقـرار بـأن العقـل المحـدود قـاصر عـلى الإلمـام بغـير المحـدود وأن الإنسـان بمعرفتـه الجزئيـة لا يسـتطيع أن يسـتوعب أغـراض وأهـداف اللهِ كُلّي القـدرة.

يرفـض المشـككون والملحـدون كلمة اللهِ لأنهـم يعجـزون عـن فهمهـا والتعمُّـق فيهـا وليـس جميـع الذيـن يدّعـون الإيمـان في مأمـن مـن هـذا الخطـر المحـدق. فهـا الرسـول بولـس يحذِّرنـا قائـلاً: «اُنْظُـرُوا أَيُّهَـا الإِخْـوَةُ أَنْ لاَ يَكُـونَ فِي أَحَدِكُـمْ قَلْـبٌ شِرِّيـرٌ بِعَـدَمِ إِيمَـانٍ فِي الارْتِـدَادِ عَـنِ اللهِ الْحَـيِّ» عبرانيـين ٣: ١٢. إنّـه لمـن الصـواب أن نـدرس تعاليـم الكُتُـب المُقَدَّسـة بتدقيـق وإمعـان، وأن نفحـص كل شيء «حَـتَّى أَعْمَـاقَ اللهِ» ١كورنثـوس ٢: ١٠. كمـا قـد أعلنهـا اللهُ، لأن «السَّرَائِـرُ لِلـرَّبِّ إِلهِنَـا وَالْمُعْلَنَـاتُ لَنَـا» تثنيـة ٢٩: ٢٩. ولكـن الشّـيطانَ يعمـل عـلى تضليـل قـوى العقـل، فيدخـل في دارس الكِتَـاب المُقَـدَّس شـيئًا مـن العجـب بذاتـه حـتى أنـه يشـعر بتضجـر وفشـل إنْ لـم يسـتطع أن يفهـم كل الحـق المـدون في هـذا الكِتَاب.كما أنـه يشـعر أَيْضًـا بـالإذلال والمهانـة في الاعـتراف بأنـه لا يفهـم كلمـات الوحـي. ولا يصـبر ريثمـا يعلنهـا لـه الـرُّوح الْقُـدُس حـين يشـاء. واذ يعتـد بحكمتـه البشريـة حاسـبًا أنهـا كافيـة لإدراك معـاني الكُتُـب المُقَدَّسـة، ثـمّ يُمـنى بالفشـل في بلـوغ الغايـة المنشـودة فمـا يلبـث أن يكذّبهـا ويرفـض سـلطانها. وهـذه النظريـات والمعتقـدات الـتي تولّـد الشَّـك في العقـول وتربكهـا والـتي يزعمـون أنهـا مبنيـة عـلى كلمـة اللهِ، هـي بالحقيقـة لا تمـتّ إليهـا بصِلـة، بـل تناقضهـا تناقضًـا بَيِّنًـا، إذ هـي مـن اسـتنباط النـاس وتحريفهـم، وكلمـة اللهِ بريئـة منهـا بـراءة تامـة.

لـو كان في مقـدور المخلـوق أن يحيط علما بالخالـق ويـدرك جميـع أعمالـه إدراكًا كاملاً لبلغ بذلـك حـدًّا في التقـدّم والمعرفـة حـتى لـم يبـقَ لـه مجـال للنمـو في العلـم والازديـاد في كمـال الصفـات. فـلا تكون بعـد أفضلية لله أو سـيادة.

والإنسان، اذ قد بلغ الحد في العِلْم والكمال، يتوقف عن التقدّم. فلنشكرن اللهَ أنَّ الأمر بخلاف ذلك، لأنَّ اللهَ، «الْمُدَّخَرِ فِيهِ جَمِيعُ كُنُوزِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ» كولوسي ٢: ٣، لا يستقصى ولا يُحدّ، وسيقضي الإنسان الأبدية كلها في البحث والدرس دون أن يستنفذ كنوز حكمة اللهِ وجوده وقوته.

يريد اللهُ مِنَّا أن نتقدم، حتى في هذه الحياة، تقدّمًا مطردًا في فهم حقائق كلمته. ولا سبيل إلى ذلك إلا بإنارة الرُّوح الْقُدُس الذي أوحى بها، لأنّ «أُمُور اللهِ لاَ يَعْرِفُهَا أَحَدٌ إِلاَّ رُوحُ اللهِ» و «الرُّوح يَفْحَصُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَعْمَاقَ اللهِ» اكورنثوس ٢: ١٠ و ١١. وقد وَعَدَ المُخَلِّصُ تلاميذه قائلاً «مَتَى جَاءَ ذَاكَ رُوحُ الْحَقِّ فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ ... لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ» يوحنا ١٦: ١٣ و ١٤.

يريد اللهُ أن يستعمل الإنسان قواه العقلية، وليس ما يزيد هذه القوى قوّةً واقتدارًا ويرقّي الذهن ترقية عالية مثل درس كلمة اللهِ. على أنه يجب علينا أن نحترس من تأليه العقل، لأنه خاضع لضعفات البشرية وأسقامها. وإنْ كنا نريد ألا تلتبس علينا أوضح الحقائق الكتابية، يجب أن ندرسها ببساطة الطفل الصغير وإيمانه مظهرين رغبتنا في التعلّم وملتمسين معونة الرُّوح الْقُدُس. واذا شعرنا بقدرة اللهِ وحكمته وعدم استطاعتنا أن ندرك عظمته، يلهمنا هذا الشعور وداعة واتضاعًا، فنفتح الكلمة بوقار مُقدَّس كما لو كنا نمثل أمام حضرته فعلاً. يجب أن يُقْدِم المرء على درس كلمة اللهِ معترفًا بوجود سلطة تفوق العقل ومخضعًا القلب لله القيّوم.

توجد أشياء كثيرة تبدو غامضة ومعقدة، فهذه سيوضحها اللهُ ويبسِّطها للذين يطلبون فهمها. ولكن بدون إرشاد الرُّوح الْقُدُس، سنكون معرضين باستمرار لتأويل الأسفار المُقَدَّسة أو إساءة فهمها. ولكنّ الكثيرين يقرأون الكِتَاب المُقَدَّس ولا يجنون منه فائدة، وقد يصيبهم ضرر بالغ إذ هم يفتحون كلمة اللهِ بدون احترام أو صلاة، فأفكارهم لم تتوجه إلى اللهِ ولم تثبت عواطفهم فيه ولم تتسق إراداتهم مع إرادته، فيخيّم الشَّك على عقولهم ويتقوّى فيهم عدم الإيمان فيَمْلك العدو أفكارهم ويوحي إليهم بتفسيرات مضلّة. والذي لا يطلب أن ينسجم ويتآلف مع اللهِ قولاً وفعلاً مهما كان عالِمًا مقتدرًا، هو عُرضة للخطأ في فهم الكِتَاب المُقَدَّس والضلال في تفسيره، فلا يُعوّل عليه. وأولئك الذين يفتشون الكِتَاب المُقَدَّس بقصد العثور على تناقضات فيه، إنما

تنقصهم البصيرة الروحية، وإذ ينظرون إليه نظرًا معوّجًا يرون في أبسط آياته وأوضحها أسباب الشَّك وعدم الإيمان.

إنّ سبب الشَّك الأساسي، مهما تنكّر وتستّر، هو في الغالب الميل إلى محبة الخطية. فلا يرحّب المُتكبِّر المُحِب للخطية بمناهي كلمة اللهِ وإرشاداتها. وإذ لا يرغب في الانصياع لتعليمها تجده على استعداد أن يشك في صحتها وينكر سلطتها. ولكي نصل إلى معرفة الحق يجب أن تكون فينا رغبة صادقة في معرفته وميل قلبي للسلوك بموجبه. وكل الذين يدرسون الكُتُب المُقَدَّسة بمثل هذه الروح يجدون فيها البراهين القاطعة على أنها كلمة اللهِ حقًا ويكتسبون من معرفة حقائقها ما يحكمهم للخلاص.

قال يَسُوعُ «إِنْ شَاءَ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ مَشِيئَتَهُ يَعْرِفُ التَّعْلِيمَ» يوحنا ٧: ١٧. فعوضًا عن التساؤل والتماحك في ما لا تفهمه، احرص على أن تنتبه إلى النور الذي قد حصلت عليه فتأخذ نورًا أعظم. واجتهد، بنعمة الْمَسِيحِ، أن تقوم بكل واجب قد صار واضحًا أمامك فتنال قوة تقدّرك على فهم تلك الواجبات التي تشك فيها الآن، وعلى القيام بها أَيْضًا.

إنّ في الاختبار لدليل يدركه الجميع، متعلمين كانوا أَمْ أُميين، واللهُ يدعونا إلى امتحان صحة أقواله وصدق مواعيده إذ يأمرنا قائلاً «ذُوقُوا وَانْظُرُوا مَا أَطْيَبَ الرَّبّ» مزمور ٣٤: ٨. فجدير بنا ألا نتكل

على ما قاله غيرنا، بل لنذق نحن أنفسنا ونعرف صدق كلماته. « اُطْلُبُوا تَأْخُذُوا» يوحنا ١٦: ٢٤. لأنه لا بدّ أن يحقق لنا هذه المواعيد التي لم تخِبْ قط ولن تخيب أبدًا. وإذ ندنو من يَسُوعَ ونفرح بملء محبته تزول شكوكنا وينقشع ظلامنا في نور حضرته الجميل.

قال الرسول بولس إنّ اللهَ «انْقَذَنَا مِنْ سُلْطَانِ الظُّلْمَةِ وَنَقَلَنَا الَى مَلَكُوتِ ابْنِ مَحَبَّتِهِ» كولوسي ١: ١٣. وكل مَن قد انتقل مِن الموت إلى الحياة «قَدْ خَتَمَ أَنَّ اللَّهَ صَادِقٌ» يوحنا ٣: ٣٣. فيمكنه أن يشهد قائلاً «احتجت إلى العون ووجدته في يَسُوعَ الذي سد حاجاتي واشبع جوع نفسي وجعلني أؤمن الآن أنّ الكِتَاب المُقَدَّس بالنسبة لي هو إعلان ليَسُوعَ الْمَسِيحِ. وإن سألتني عن إيماني بالْمَسِيحِ أقول: لأنَّه مُخلِّصي الإلهي، أو عن ثقتي بالكِتَاب المُقَدَّس أجبت إني وجدته صوت اللهِ لنفسي». وهكذا يكون لنا في أنفسنا الشهادة أن الكِتَاب المُقَدَّس حق، وأن الْمَسِيحَ ابن الله، وأننا في إيماننا به «لَمْ نَتْبَعْ خُرَافَاتٍ مُصَنَّعَةً» ٢ بطرس ١: ١٦.

حثَّ بطرس الرسول الإخوة على أن ينموا «فِي النِّعْمَةِ وَفِي مَعْرِفَةِ رَبِّنَا وَمُخَلِّصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ» ٢بطرس ٣: ١٨. إنه عندما يكون شعب اللهِ ناميًا في النِّعمة يزداد على الدوام فهمًا وإدراكًا لكلمته تعالى. ويكون في استطاعته أن يرى نورًا جديدًا وجمالاً جديدًا في حقائقها المُقَدَّسة. ولقد صَدَق هذا القول في تاريخ الكنيسة على مدى العصور، وسيظل صحيحًا إلى النهاية. كقول الحكيم «أَمَّا سَبِيلُ الصِّدِّيقِينَ فَكَنُورٍ مُشْرِقٍ يَتَزَايَدُ وَيُنِيرُ إِلَى النَّهَارِ الْكَامِلِ» أمثال ٤: ١٨.

فبالإيمان نستطيع أن نتطلع إلى الأبدية ممسكين بوعد اللهِ من جهة ما سنكون عليه من النّمو العقلي واتحاد مداركنا بالمدارك الإلهية وجعل كل قوة من قوى النَّفْس على اتصال مباشر بمصدر النور. حينئذ نستطيع أن نفرح ونتهلل لأن كل الأمور التي تسبب لنا حيرة وارتباكًا بشأن أعمال العناية ستكون واضحة جلية. والأشياء التي تبدو لنا عسرة الفهم ستكون مدركة مفهومة. وكل ما بدا لعقولنا مشوّشًا مضطربًا سنراه على أتمّ انسجام وأجمل تنسيق، «فَإِنَّنَا نَنْظُرُ الآنَ فِي مِرْآةٍ فِي لُغْزٍ لَكِنْ حِينَئِذٍ وَجْهًا لِوَجْهٍ. الآنَ أَعْرِفُ بَعْضَ الْمَعْرِفَةِ لَكِنْ حِينَئِذٍ سَأَعْرِفُ كَمَا عُرِفْتُ» ١كورنثوس ١٣: ١٢.

الفصل الثالث عشر

الفَرَحُ فِي الرَّب

إنّ أولاد اللهِ لمدعوون ليكونوا سفراء عن الْمَسِيحِ مظهرين للعالَم جود الرَّب ورحمتَه، فكما أعلن الْمَسِيحُ صفات الآب على حقيقتها، هكذا ينبغي أن نعلن نحن أَيْضًا الْمَسِيحَ على حقيقته لعالَم لا يعي حنوّ محبته وشفقتها. وقد وصف يَسُوعُ مهمتنا هذه إذ قال مخاطبًا الآب: «كَمَا أَرْسَلْتَنِي إِلَى الْعَالَمِ أَرْسَلْتُهُمْ أَنَا إِلَى الْعَالَمِ»، «أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ ... لِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي» يوحنا ١٧: ١٨ و ٢٣. ويخبر بها الرسول بولس في قوله عن تلاميذ يَسُوعَ: «ظَاهِرِينَ أَنَّكُمْ رِسَالَةُ الْمَسِيحِ»، «مَعْرُوفَةً وَمَقْرُوءَةً مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ» ٢كورنثوس ٣: ٣ و ٢. ففي كل مِن أولاده يرسل يَسُوعُ رسالة إلى العالَم ويرسل بك، وأنت مِن أولاده رسالةً إلى أُسرتك، وإلى قريتك، وإلى الحي الذي تسكنه لأنه وهو حالّ في قلبك يريد أن يتحدث بك إلى قلوب الذين لا يعرفونه. وقد يكون أنهم من الذين لا يطالعون الكُتُب المُقَدَّسَة، فلا يسمعون صوته مِن صفحاتها، ولا يرون محبته في أعماله، ولكنهم، إن أنت مثّلته أمامهم، قد يفهمون شيئًا مِن رحمته ويُربحون لمحبته وخدمته.

جعل الْمَسِيحُ من الذين يتبعونه منارات تنير بنوره الطريق المؤدي إلى السّماء لكي يستنير كلُّ مَن يراهم ويلاحظ صفاتهم ويعرف مَن هو الْمَسِيحُ وما هي خدمته.

إنْ نحن مثَّلنا الْمَسِيحَ تمثيلاً صادقًا، سنجعل خدمته تبدو على حقيقتها جذابة خلابة. وأما الْمَسِيحيون الذين تملأ قلوبهم الكآبة والحزن وتنطق السنتهم بالتذمرات والشكاوى، فهم يمثّلون اللهَ والحياة الْمَسِيحية تمثيلاً كاذبًا إذ يحملون الناس على الظن بأنه تعالى لا يسرّ بسرور

أولاده وسعادتهم. فهم يشهدون على أبيهم السَّمَاوي شهادة زور.

يفرح الشَّيْطانُ عندما ينجح في اقتياد أولاد اللهِ إلى اليأس والقنوط، ويبتهج إذ يحملهم على الارتياب من إرادة المولى في خلاصهم وفي قوّته على ذلك. كما أنه يرتاح ارتياحًا عظيمًا إذ يراهم يوجسون شرًا من تدبيرات العناية الإلهية. إنّ شغل إبليس الشاغل هو أن يصوّر اللهَ لعقولنا كأنه تعالى خالٍ من الرأفة ومجرَّد مِن الرحمة. وهكذا يُعبِّر الشَّيطانُ عن الحق تعبيرًا كاذبًا ويملأ المخيلات بأفكار عن اللهِ فاسدة. وكثيرًا ما نتأمل في أباطيل العدو هذه ولا نتأمل في الحق المتعلق بأبينا السَّماوي. فنهين اللهَ بشكوكنا فيه وتذمراتنا عليه. والشَّيطانُ دؤوب في تصوير الحياة الدينية كأنها حياة التشاؤم مليئة بالأتعاب والصعاب. وعندما يظهر المؤمن أمام العالَم بمثل هذا المنظر، فإنه بعدم إيمانه يدعم ادّعاء الشَّيْطانِ الكاذب هذا.

كثيرون، وهم يسيرون في طريق الحياة، يطيلون التفكير في غلطاتهم وخيبة آمالهم. فتمتلئ قلوبهم حزنًا وكآبة، كما حدث لأختٍ كتبت إليَّ وأنا في أوروبا تطلب مني كلمة تشجيع في ضيقها العظيم. وحدث في الليلة التالية لقراءة رسالتها أنني حلمت أني في بستان وصاحب البستان يقودني في طرقاته وأنا أقطف الزهور وأتلذذ بجمال رائحتها. وإذ بالأخت المُشار إليها وهي تسير إلى جانبي تلفت نظري إلى الشوك والحسك اللذين كانا يعترضان طريقها. فكانت تئنّ وتتنهد ولم تتبع القائد في الطريق بل سلكت بين الشوك والعوسج وهي تقول، «آه أليس مما يؤسف له أنّ هذا البستان الجميل تفسده هذه الاشواك». فأجابها القائد قائلاً: «دعي الأشواك وشأنها، وإلا فإنها تجرحك، واقطفي الورد والزنبق والقرنفل».

أَلَمْ تجتز في اختباراتك في مراتع هناء؟ أَلَمْ يطرب قلبك فرحًا بالروح يومًا ما؟ وإذا تصفحت سِفْر حياتك ألا تجد بين صفحاتِه صفحات ملذّة؟ أوليست مواعيد اللهِ كزهور عطرة نابتة على جانبي الطريق يمتلئ قلبك فرحًا لجمالها وحلاوتها؟

أما العوسج والأشواك، فهذه إنما تجرحك وتكدرك. وإن حصرت همك في جمعها، ورحت تقدمها للآخرين، أفلا تكون بعملك هذا قد ازدريت بجود اللهِ ومنعت أَيْضًا الذين حولك من السير في طريق الحياة؟

فليس من الحكمة أن نذكر مكدرات حياتنا الماضية، بما فيها من خطايا

واخفاقات، ونتحدث عنها ونحزن عليها إلى أن يغمرنا الفشل واليأس. فإنّ النَّفْس الخائرة العزم يحفّها ظلام قاتم لا يتخلله نور اللهِ، بل وتلقي سحابة مظلمة على طريق الآخرين أَيْضًا.

نشكر اللهَ على الصّور الجميلة التي يعرضها علينا في كلمته. فلنجمعن توكيدات محبته المباركة، لكي نتأملها باستمرار حيث نرى ابن اللهِ تاركًا عرش أبيه ولابسًا الطبيعة البشرية لينقذنا من سلطة إبليس. ولنتأمل انتصاره لأجلنا فاتحًا لنا أبواب السَّماء ومعلنا للعين البشرية مسكن حضرته حيث يتجلّى المجدُ الإلهي. فنرى الجنس الهالك مرفوعًا مِن هُوّة الهلاك التي تردّى فيها بواسطة الخطية، معادًا اتصالُه بالقادر على كل شيء، فائزًا في امتحان الإيمان بالفادي، مكتسبًا بِرَّ الْمَسِيحِ وجالسًا على عرشه. إنّ هذه هي الصّور التي يعرضها علينا ويريد أن نطيل التأمل فيها فنفرح كل حين.

ولكن عندما يبدو علينا الارتياب من محبة اللهِ وعدم الثقة بمواعيده، نهينه ونُحزِن روحه القُدُّوس. ماذا يكون شعور أُمّ اذا كان أولادها يتذمرون ويتشكون منها باستمرار، كأنّها غير معنية بشؤونهم، في حين أنّ كل جهودها منصرفة إلى الاهتمام بهم والعمل على إراحتهم. أو ليس ممّا يكسر قلبها أن ترى أولادها يرتابون من محبتها؟ وأي والد يرضى بأن يعامله بنوه بمثل هذه المعاملة؟ وكيف يعتبر أبونا السّماوي شكوكنا في محبته بعد أن بذل وحيده لأجلنا لكي نحيا حياةً أبديةً، وقد قال الرسول: «اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ» رومية ٨: ٣٢. ومع ذلك فكم مِن أمرئ يقول، إنْ لم يكن بلسان مقاله فبلسان حاله، إنّ اللهَ لا يقصدني أنا شخصيًّا بهذه المواعيد فربما هو يحب الآخرين ولكنّه لا يحبني أنا بالذات.

إنّ هذا الموقف ليضرّ بنفسك، لأنك في تعبيرك عما يخامرك من الشّكوك تفتح الباب للمجرّب، وتقوّي في نفسك الميل إلى الارتياب، وتحزن الملائكة القائمين على مساعدتِك وحراستِك. فإذا جرّبَك العدو لا تسمح لنفسك بأن تتفوه بكلمة شك أو عدم الإيمان. لأنك إذا فتحت الباب لإيحاءات العدو ووسوساته، يملأ صدرك بهواجسه، وفكرك بسؤالات التمرّد. وإذا تكلمت بما في خلدك لا يعود كلامك بالضرر عليك فحسب، بل تزرعُ في أفكار غيرك زرعًا ينبت ويأتي بثمرٍ قد لا يبطل مفعولُه أبدًا. قد تستفيق أنت من التجربة وتنجو

مـن فـخ إبليـس في حـين أن هـؤلاء الذيـن أثّـرت فيهـم بتعبـيرك عـن شـكوكك قـد لا يسـتطيعون الخـلاص من الكُفْـر الـذي زرعتـه فيهـم بكلامـك. فمـن المهـم جِـدًّا أن نجعـل كلامَنـا مُقتصرًا عـلى مـا يهـبُ السـامعين حيـاةً روحيـةً وقـوةً إلهيـة.

ينصـت الملائكـة ليسـمعوا مـا تخـبر بـه العالَـم عـن أبيـك السَّـماوي. فليكـن حديثـك دائمًـا عـن الحـي في كل حـين ليشـفع فيـك. وإذ تصافـح صديقـك ليكـن الحمـد للّه عـلى شـفتيك وفي قلبـك. فـإن هـذا أدعـى إلى اكتسـاب صديقـك واجتـذاب أفـكارِه إلى الْمَسِـيحِ.

لـكلّ النـاس محنهـم وأحزانهـم الـتي تثقـل كاهلهـم ولهـم تجاربهـم الـتي يصعـب عليهـم مقاومتهـا. لا تخـبر البـشر رفقائـك بأتعابـك، بـل ألقهـا عـلى اللهِ بالصَّـلاة. وخذهـا لنفسـك قاعـدة أنـك لا تتفـوه أبـدًا بكلمـة مـن شـأنها أن تثـني عـزم غـيرك أو تبـث فيهـم الشَّـك، بـل اعمـل مـا في وسـعك لتخفـف عنهـم أثقالهـم وتقوّيهـم بكلمـات الرجـاء والثقـة المُقَدَّسَـة.

كـم مِـن نفْـس باسـلة تعـاني مـن شـدة التجربـة، وقـد أوشـكت أن تخـور في جهادهـا ضـد نفسـها وضـد قـوات الـشر. فـلا تثبـط مثـل هـذه النَّفْـس في صراعهـا الشـاق، بـل شـدّدها بكلمـات التشـجيع والرجـاء الـتي تدفعهـا إلى المُـضي في السّـير. وبذلـك ينبعـث منـك نـور الْمَسِـيحِ ويـضيء عـلى الآخريـن، «لأَنْ لَيْـسَ أَحَـدٌ مِنَّـا يَعِيـشُ لِذَاتِـهِ» روميـة ١٤: ٧. فإنـه بتأثيرنـا، مـن حيـث لا نشـعر، قـد يتشـجع الآخـرون ويتقـوون، أو قـد يضعفـون ويخـورون، فيصـدّون عـن الإتيـان إلى الْمَسِـيحِ وقبـول الحـق.

كثـيرون يحملـون صـورة خاطئـة عـن حيـاة وصفـات السّـيد الْمَسِـيحِ. فهـم يتصـورون أنّ الْمَسِـيحَ كان صارمًـا عابسًـا بعيـدًا عـن كل تبسّـم وفـرح، ولذلـك تـرى كل اختباراتهـم الدينيـة مصطبغـة بهـذا التصـوّر المغلـوط.

كثـيرًا مـا نسـمع الآيـة «بـكى يَسُـوعُ»، والقـول إنّ الكِتَـاب لا يذكـر أنـه تبسّـم. صحيـح أنّ مخلِّصنـا كان «رَجُـلُ أَوْجَـاعٍ وَمُخْتَبِرُ الْحَـزَنِ» لأنـه حمـل عـلى قلبـه ويـلات البـشر كلهـا. ولكـن ولـئن كانـت حياتـه حيـاة إنـكار الـذات والتضحيـة وخيّـم عليهـا سـحاب مـن الآلام والهمـوم، إلا أنّ هـذا كلـه لـم يسـحق روحـه فيـه، ولـم تكـن هيئتـه هيئـة الحزيـن المتضجـر بـل هيئـة الرائـق المطمـئن. وقلبـه كان كينبـوعٍ مـن الحيـاة يفيـض سـلامًا وفرحًـا وابتهاجًـا حيثمـا حـلّ.

كان مخلّصُنـا يتسـم بالوقـار والهيبـة

ومع ذلك لم يكن متجهّمًا مكتئبًا. والذين يقتدون به تمتلئ حياتهم بجدية القصد والشعور العميق بالمسؤولية الشَّخصية ويبعدون عن كل طيش ومرح صاخب وملاحظات ساخرة تجاه الآخرين. لأن الديانة الْمَسِيحية تمنح سلامًا كالنهر لمعتنقيها. فهي لا تطفئ جمرة الفرح ولا تخمد حماسة الابتهاج ولا تغيّم على الوجه الوضّاح البسّام. إنَّ الْمَسِيحَ لَمْ يَأتِ لِيُخْدَمَ بل لِيَخْدِم. هكذا هم أَيْضًا يقتدون به عندما تملك المحبة في قلوبهم.

إذا تأملنا في ما يأتيه الناس من الأعمال الجائرة القاسية نجد أننا لا نستطيع أن نحبَّهم كما أحبنا وإياهم الْمَسِيحُ، بيد أننا إذا أكثرنا التفكير في حنو محبته العجيب وشفقته، يفيض روح الْمَسِيحِ مِنَّا للناس. والحبّ للناس واجب واحترامهم لازم مهما رأينا فيهم من الهفوات والنقائص. وإذا ربّينا أنفسنا على التواضع وعدم الاعتداد بالذات واللطف والصبر أمام هفوات الناسِ نستأصل بذلك الأنانية من أنفسنا ونُكسبها سعةَ صدرٍ ورحابةَ قلب.

قال المرنم: «اتَّكِلْ عَلَى الرَّبِّ وَافْعَلِ الْخَيْرَ. اسْكُنِ الأَرْضَ وَارْعَ الأَمَانَةَ» مزمور ٣٧: ٣. أجل، «اتَّكِلْ عَلَى الرَّبِّ» لأن لكل يوم أثقاله وهمومه ومحيّراته، وحين نجتمع معًا ما أكثر استعدادنا لأن نتحدث عن أتعابنا وتجاربنا، فهذا يتوجس شرّ من هنا وذاك يتوقع صعابًا مِن هناك، وكلّنا نُعَبِّر عن ثقلِ همّنا، فكأني بنا وليس لنا مُخَلّص حبيب شفوق وُجِدَ في الضيق عونًا شديدًا.

ويتطلع البعض إلى الهموم التي قد تأتي فيستميلون للخوف منها مع أنهم محاطون يوميًّا بدلائل المحبة الكثيرة ويتمتعون بهبات العناية الإلهية، إلا أنهم يغضون الطرف عن البَرَكَاتِ الحاضرة. وهم ينصرفون إلى التأمل في أمورٍ غير مستحبّة قد تأتي، أو في صعوبة قد أتت، ومع صغرها، أعمت أعينهَم عن الأشياء الكثيرة التي تستوجب الشُّكر العظيم. فهذه الصعوبات التي يجب أن تدفعهم إلى اللهِ، مصدر عونهم الوحيد، تفصلهم عنه تعالى لأنها تولّد فيهم القلق والتذمر.

هل بالصواب لا تؤمن؟ ولماذا نكون عديمي الشّكر وعديمي الثّقة؟ إنّ يَسُوعَ لصديقنا والسّماء كلها مهتمة بصالحنا، فيجب ألا ندع ارتباكات الحياة اليومية وشواغلها تجعلنا قلقي البال ومُقطبي الجبين. لأننا إذا استسلمنا لهذه الحال فلا بد من أن يكون لنا دائمًا ما ينغصنا ويكدرنا. فينبغي ألا نستسلمَ للهمّ. فإنَّ الهمّ يضنينا ويبلينا دون أن يعيننا على احتمال التجارب.

قـد تَرْتَبِـك في تجارتـك وقـد تعتّـم الأحـوال أمامـك وتهـددك الخسـارة مـن كل جانـب، فـلا تيـأس بـل أَلْـقِ عـلى الـرّب همَّـك، واحتفـظ بهدوئـك وانشراحـك. صـلِّ إلى اللهِ طالبـا منـه الحكمـة والحـذر في إدارة شـؤونك لـكي تتبـصّر فيهـا وتمنـع الخسـارة والخـراب. واعمـل مـا في وسـعك للحصـول عـلى نتائـج مُرضيـة. فقـد وعـد يَسُـوعُ بالمساعدة إنْ بذلنا نحـن جهدنـا، ثـمّ، وقـد قمـت بالواجـب وأنـت متـكل عـلى معينـك الأمـين، فاقبـل النتائـج بـرضى وفـرح.

ليسـت إرادة الـرّب أن يثقـل كاهل شـعبه بالهـمّ غـير أنـه لا يريـد أَيْضًـا أن يضلّنـا فـلا يقـول لنـا «لا تخافـوا لأن طريقكـم مأمـون وليسـت أمامكـم مخاطـر». كلا، بـل هـو يعلـمُ أن التجـارب والأخطـار تنتظرنـا. لهـذا السـبب جعلنـا عـلى بيّنـة مـن الأمـر وهـو لا يعـتزم أن يأخـذ شـعبه مـن عالـم الخطيـة والـشر، بـل أن يدلهـم عـلى الملجـأ الأمـين. لقـد صـلى الْمَسِيحُ مـن أجـل التلاميـذ قائـلاً، «لَسْـتُ أَسْـأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُـمْ مِـنَ الْعَالَـمِ بَـلْ أَنْ تَحْفَظَهُـمْ مِـنَ الشِّرِّيـرِ» يوحنـا ١٧: ١٥. وخاطبهـم قائـلاً: «فِي الْعَالَـمِ سَـيَكُونُ لَكُـمْ ضِيـقٌ وَلَكِـنْ ثِقُـوا: أَنَـا قَـدْ غَلَبْـتُ الْعَالَـمِ» يوحنـا ١٦: ٣٣.

في الموعظـة عـلى الجبـل علَّـم الْمَسِـيحُ تلاميـذه دروسًـا ثمينـة فيمـا يختـص بـضرورة الثِّقَـة بـاللهِ. وكان القصـد مـن هـذه الـدروس تشـجيع أولاد اللهِ عـلى مـدى العصـور، وقـد وصلـت إلينـا مفعمـة بالتعليمـات والتعزيات. فقـد وجّـه الْمَسِـيحُ أنظـار تابعيـه إلى طيـور السَّـمَاء وهـي تنطلـق في الجـو مغـرّدةً أناشـيد الحمـد والشُّـكران دون أن يشـغلها هـمّ أو قلـق. وهـي مـع كونهـا لا تـزرع ولا تحصـد،

يمدهـا الآب السّـماوي بـكل حاجاتهـا. ثـم سـأل تلاميـذه قـائلاً: «أَلَسْـتُمْ أَنْتُـمْ بِالْحَـرِيِّ أَفْضَـلَ مِنْهَـا» متى ٦: ٢٦. فـإنَّ رزّاق الإنسـان والحيـوان هـو الـذي يفتـح يـده ويشـبع جميع مخلوقاتـه خـيرًا. وهـو تعـالى لا يغفـل حـتى عـن عصافـير السّـماء إذ يسـد حاجاتِهـا، وإن كان لا يضـع الطعـام في مناقيرهـا، لكنّـه يعطيهـا فتلتقـط. فهـي تعـدّ أعشاشـها وتقوت صغارهـا وتنطلـق في الجـو مغـردة في عملهـا، لأن الآب السّـماوي يقوتهـا. «أَلَسْـتُمْ أَنْتُـمْ بِالْحَـرِيِّ أَفْضَـلَ مِنْهَـا» متى ٦: ٢٦. ومـا قيمـة العصافـير بالنسـبة إليكـم وأنتـم خلائـق اللهِ العاقلـة الـتي تعبـده «بِالـرُّوحِ وَالْحَـقِّ»؟ أفـلا يمدكـم خالقكـم وحافـظ حياتكـم بـكل مـا تحتاجـون إليـه إنْ أنتـم توكلتـم عليـه؟

وجَّـه الْمَسِـيحُ أنظـار تلاميـذه إلى زهـور البرّيـة الناميـة بكـثرة، الزاهيـة بجمالهـا البريء الـذي بـه زيّنهـا أبونـا السّـماوي تعبـيرًا عـن محبتـه للإنسـان. فأشـار إليـه قائـلاً: «تَأَمَّلُـوا زَنَابِـقَ الْحَقْـلِ كَيْـفَ تَنْمُـو» متـى ٦: ٢٨. إنّ جمـال هـذه الزهـور الطبيعيـة ليفـوق كثـيرًا مَجْـدَ سـليمان، بـل ولا تعـادل كل الحلـل الـتي حاكهـا وزخرفهـا أمهـر الصنـاع هـذا الحُسـن الطبيعـي والبهـاء اللامع في الزهور الـتي خلقها اللهُ ولا تقـارن ببسـاطتها. ثـم أردف يَسُـوعُ متسـائلاً: «فَـإِنْ كَانَ عُشْـبُ الْحَقْـلِ الَّـذِي يُوجَدُ الْيَـوْمَ وَيُطْـرَحُ غَـدًا فِي التَّنُّـورِ يُلْبِسُـهُ اللَّـهُ هَكَـذَا أَفَلَيْـسَ بِالْحَـرِيِّ جِـدًّا يُلْبِسُـكُمْ أَنْتُـمْ يَـا قَلِيـلِي الإِيمَـانِ» متـى ٦: ٣٠. إن كان اللهُ، الفنّانُ الإلهـي العظيـم، يزيـن عشـب الحقـل الـذي في يـوم واحـد يفـنى، بشـتى الألـوان البديعـة اللطيفـة، فكـم بالحـري يعتـني بالذيـن خُلقـوا عـلى صورتـه ومثالـه؟ فـدروس الْمَسِـيحِ هـذه إنمـا تحـوى توبيخًـا لـذوي الفكر القلـق والقلب الشـاكّ الجاحـد.

إنَّ الـرَّب يـودّ لـو كان كل أولاده سـعداء، مُسْـتَقِرّين، كمـا يـدلّ عـلى ذلـك قوله «سـلاَمِي أُعْطِيكُـمْ. لَيْـسَ كَمَـا يُعْطِـي الْعَالَـمُ أُعْطِيكُـمْ أَنَـا. لاَ تَضْطَـرِبْ قُلُوبُكُـمْ وَلاَ تَرْهَبْ» يوحنا ١٤: ٢٧، «كَلَّمْتُكُـمْ بِهَـذَا لِـكَيْ يَثْبُـتَ فَرَحِـي فِيكُـمْ وَيُكْمَـلَ فَرَحُكُـمْ» يوحنـا ١٥: ١١.

إنّ السَّـعادة الـتي ينشـدها الإنسـان عـن دوافـع أنانيـة بعيـدًا عـن طريـق الواجـب إنّمـا هـي سـعادة مختلـة التـوازن متقلبـة، ذاهبـة، تضمحـل تاركـة النَّفْـسَ حزينـة مستوحشـة. ولكـن في خدمـة اللهِ دوام الفـرح والـرضى. فهـو تعـالى لا يـترك المؤمـن يسـير في طريـق غـير مأمونـة، يتأسـف تأسـفًا باطـلاً، وينـوح خيبـة الآمـال، لأن البـارَّ، وإن كان لا يتمتـع بكثـير مـن بَـرَكَات هـذه الحيـاة إلا أنـه يتطلـع إلى الأبديـة بفـرح عظيـم.

ولكـن يمكـن أن يكـون للمؤمـن، حـتى

في هـذه الحيـاة، فـرح الشركـة مـع الْمَسِـيحِ وابتهـاج السـلوك في نـور محبتـه وتعزيـة حضـوره الدائـم. فـإنّ كل خطـوة يخطوهـا في الحيـاة تدنيـه منـه وتهبـه اختبـارًا أعمـق في محبتـه وتزيـده اقترابًـا مِـن وطنـه المبـارك، موطـن السـلام. فـلا نطرحـن ثقتنـا، بـل لـنزدد تيقّنًـا ورسـوخًا أكـثر مـن أي وقـت مـضى لأن «إِلَى هُنَـا أَعَانَنَـا الـرَّبُّ» اصموئيـل ٧: ١٢. وهـو سـيعيننا إلى النهايـة. ولنعـدد معالـم الطريـق لـنرى كيـف أعاننـا الـرَّب وخلّصنـا مِـن يـد المهلـك. ولنتذكـر مراحمـه، والدمـوع الـتي مسـحها، والآلام الـتي سـكنَّها، والهمـوم الـتي أزالهـا، والمخـاوف الـتي بددهـا، والحاجـات الـتي سـدها، والـبرَكَات الـتي أَنْعَـمَ بهـا، وبذلك نشـدّد نفوسَـنا لمواجهـة مـا قـد يعترضنـا في مراحـل الطريـق الباقيـة.

لا بـدّ مِـن أن نتوقـع المزيـد مِـن الحيرة والارتبـاك في الـصراع المقبـل، ولكنّنـا، إذ نعيـد النّظـر إلى ما قد مضى وما سيأتي، نقـول «إِلَى هُنَا أَعَانَنَـا الـرَّبُّ» «وَلْتُعَـادِلْ قُوَّتُـكَ امْتِـدَادَ أَيَّامِـكَ» (ترجمـة تفسـيرية) تثنيـة ٣٣: ٢٥. إنَّ الامتحـان لـن يزيـد صعوبـة عـلى مـا نسـتطيع احتمالـه بالقـوة الممنوحة. فلنعمل إذًا حيث نجد العمل متيقنـين مِـن الانتصار بالـذي يقوينـا.

عَمَّا قريب سـيفتح الْمَسِـيحُ أبوابَ السّماء عـلى مصراعيهـا لاسـتقبال أولاد اللهِ، فيطرَبـون لسـماع البَرَكَـة الـتي يردِّدها ربّ المجـد في قوله «تَعَالَـوْا يَـا مُبَـارَكِي أَبِـي رِثُـوا الْمَلَكُـوتَ الْمُعَـدَّ لَكُـمْ مُنْـذُ تَأْسِـيسِ الْعَالَـمِ» متى ٢٥: ٣٤.

حينئـذ يقـف يَسُـوعُ أمـام المفديـين مرحّبـا بهـم إلى المـنزل الـذي يعـدّه لهـم الآن حيـث يكونـون في صحبـة الذيـن انتـصروا عـلى الشّـيطانِ وصاغـوا بنعمـة اللهِ أخلاقًـا كاملـة. ولا يكـون هنـاك الزنـاة والكذبـة ولا عَبَـدة الأوثـان، وأمـا كل مـا كان قـد اعـترى المفديـين مـن نقـص أو ميـل إلى الـشرّ فـيزول عنهـم بـدم الْمَسِـيحِ. ويحـلّ عليهـم بهـاءُ مَجْـدِه الـذي يفـوق لمعـان الشَّـمس. ويـضيء فيهـم الجمـال الأدبي، كمـال صفاتـه تعـالى، الـذي تفـوق قيمتـه، ذلـك مِـن المجـد الخارجـي. إنهـم بـلا عيـب قـدام عـرش اللهِ، يشـاطرون الملائكـة بنبلهـم وامتيازاتهـم.

فبالنسـبة إلى هـذا المـيراث المجيـد «مَـاذَا يُعْطِـي الإِنْسَـانُ فِـدَاءً عَـنْ نَفْسِـهِ؟» متى ١٦: ٢٦. قـد يكـون فقيرًا ومـع ذلـك يملك في نفسـه غـنى وشرفًـا لا يملكهمـا العالـم كلـه. إنّ النَّفْـسَ المفدّيـة المُطهّـرة مـن الخطيـة، بـكل قواهـا النَّبِيّلـة المكرسـة لخدمـة اللهِ لهـي أثمـن مـن الجواهـر. وهنـاك فـرح في السَّـماء في حـضرة اللهِ والملائكـة القديسـين بنفـس واحـدة تنـال الخـلاص، فـرح يعـبَّر عنـه بتهليـلات النَّـصر المُقَـدَّسِ وأغانيـه.

الوعد

www.al-waad.tv

حيث تتحسن الحياة ببساطة

facebook.com/al.waad

alwaad.tv/subscribe

+961 76 888 419